خطيب بدلة

فريد.. الفتى الفريد

مدونة ابو عبدو

قصة




فريد.. الفتى الفريد

فريد.. الفتى الفريد

المؤلف: خطيب بدلة

لوحة الغلاف: الفنّانة سميرة بيراوي

تصميم الغلاف: خالد الوهب

الطبعة الأولى: 2023

الرقم الدولي (ISBN): 978-9933-577-64-3

نون 4 للنشر والطباعة والتوزيع

المنشية القديمة – حلب – سورية

فرع 1: دوكتورلار سيتاسي – غازي عينتاب – تركيا

خليوي: 00905372864656

00905346915535

بريد إلكتروني: kh.wahab@gmail.com

m-wahab45@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

خطيب بدلة

فريد.. الفتى الفريد

قصة

تحذير من المؤلف

لا تأخذ من هذه القصة – عزيزي القارئ – عِبَراً، ولا تتعظْ من أحداثها، فهي قصة للتسلية، لا أكثر، آثرتُ أن أرويها لك مثلما حدثت، أو بالأصح: مثلما سمعتُها من بعض الرواة الشفاهيين من أهل مدينة إدلب.. ولا أنكر أنني تصرفتُ ببعض التفاصيل، أثناء نقلها من ذاكرتي إلى الورق، لأنني كنت قد نسيتُها، فصار فيها خروقات، لا بُدَّ معها من الترقيع.

*****

زمان الأحداث: ستينيات القرن العشرين... وما قبلها بقليل، وما بعدها بقليل.

مكانها: مدينة إدلب.. التي كانت في تلك الأيام بلدة ريفية كبيرة.

-1-

كان يعيش، في الحارة الشمالية من مدينة إدلب، فلاحٌ طيب، آدمي، محترم، اسمه مرعي سبنَّان، يُعرف بـ"أبو خليل"، يسكن مع أسرته داراً عربية قديمة، اقتطعَ قسماً منها وجعله زريبة للكديشين اللذين يستخدمهما في مهنته، وهي حراثة الحقول والكروم بالأجرة، وثمة، أمامَ الزريبة، فسحة توضع فيها "عدّة الفلاحة"، وأعدال التبن، وأكياس العلف، بالإضافة إلى الكثير من الكراكيب والقراقيع التي تستخدمُها الأسرة لأغراض مختلفة، وأخرى لفها الإهمال، وفي جانب من هذه الفسحة، ثمة سلالم هرمية (سَلَّاتات) تستخدمها الأسرة حينما تذهب لقطاف الزيتون، بالأجرة، خلال فصل الخريف.

يعود تاريخ زواج أبو خليل إلى أواسط الأربعينيات. خَلَّفَ ولدين، على التتابع، هما خليل وجميل، ولدت أم خليل بعدهما بنتين توءمين، واثنتين متتاليتين، وعندما كانت في الثالثة والأربعين من عمرها، حملت مجدداً، وولدت صبياً فائق الجمال، رأسُه كبير، شعرُه أشقر وشبه مكتمل، لون عينيه يتدرج بين مشتقات الأزرق والأخضر، رمشاه كثان، أسودان، يظن مَنْ يتأملهما أنهما مُكَحَّلان، وكان مبتسماً منذ لحظة وصوله إلى الحياة.

صلى أبو خليل على النبي، وحمل الطفل الوليد، وأذَّن في أذنه، وكَبَّر، وقال لأم خليل إن هذا الولد سيكون فريدَ عصره، بإذن الله تعالى، ولذلك سأسميه "فريد".

(لم يكن أبو خليل يعرف أن هذا الولد سيكون مجنوناً، ومؤذياً).

*****

-2-

فريد ليس مجنوناً بالمعنى الحرفي للكلمة. لم يكن في بلادنا، أصلاً، أطباء مختصون بالأمراض العقلية يمكن أن يعاينوا الإنسان، ويقرروا إن كان عنده مشاكل عقلية أم لا، وحتى اللجانُ الطبية التي كانت تعتمدها شُعَبُ التجنيد لفحص المجندين، قبيل سَوْقهم إلى العسكرية، تخطئ أحياناً في فحص شاب عاقل، فتُقرر تسريحَه بعلة الجنون، وتكتب لشاب مجنون في صحيفة خدمته "سالم مسلح"، فيُجْبَر على تأدية الخدمة العسكرية كلها كما يؤديها العقلاء!.

ولكن؛ وبعيداً عن الطب والاختصاصات واللجان.. أهلُ مدينة إدلب هم الذين قرروا أن "فريد مرعي سبنَّان" مجنون، وتعاملوا معه، منذ طفولته المبكرة، على هذا الأساس، ولا ندري إن كانوا يخترعون حكايات ويجعلونه بطلها، تدل على أنه مجنون، أم أنه كان يقوم بكل المشاغبات التي رويت عنه بالفعل... ويا ليتهم صنفوه مجنوناً عادياً واكتفوا بذلك، بل كانوا يضيفون أنه: خبيث، وغدار، ومؤذ.. ويوصون أبناءهم الذكور أن يبتعدوا عنه قدر الإمكان، ويحذرون البنات من الاقتراب منه.

*****

-3-

أول قرار اتخذه أبو خليل بخصوص فريد هو أن يمتنع عن تسجيله في المدرسة.

جرت العادة، في تلك الأيام، أن يتحرى كل واحد من مديري المدارس، عن الأولاد الذين يبلغون سن السابعة الموجودين في حيه، ويتصل شخصياً بذويهم، ويحثهم على تسجيلهم، مع وعود بأن الأسرة التعليمية ستكون للطفل مثل أهله، وإذا تذرع الأب بأن يريد إبقاء ابنه خارج المدرسة، من أجل المساعدة في شغل الدكان، أو الفلاحة، يحاول إقناعه بأن هذا العمر ما يزال مبكراً على العمل، ويسرب له، من طرف خفي فكرة أن التعليم في سورية إلزامي، وأن بالإمكان إحالة أسماء التلاميذ المتخلفين عن الالتحاق بالمدرسة إلى المخفر، ويضيف:

- يعني مانها حلوة بحقك يجوا الشرطة ويشحطوا الولد عَ المدرسة بالقوة.

وأحياناً يقوم بمهمة التواصل مع الأهالي أحدُ المعلمين، ولا سيما إذا كان بينه وبين أهل التلميذ المطلوب قرابة، أو جيرة، أو صحبة، وهذا ما حصل عندما التقى أبو خليل بالأستاذ فارس الحجي أثناء خروجهما من جامع الساحة، بعد صلاة العشاء. تبادلا عبارة: تقبلَ الله العظيم، وقال فارس:

- من يومين شفت ابنك الزغير، الله يخلي لك ياه، عم يلعب في الحارة. ما شالله عليه، مشبشب.. وبصراحة أنا ما عرفت إنته ليش ما قيدته في المدرسة..

لم يشأ أبو خليل أن يحدث الأستاذ فارس بما يشاع عن جنون فريد، أو عن تصرفاته التي تدل على الجنون، لذلك قال له بصوت خفيض:

- استرنا يا أستاذ فارس، الله يستر على عرضك، ما بدي مدارس. (وبصوت أخفض) فريد، الله يخلي ولادك، حِرِك، ومشاكلجي، ومجلوق. صدقني أنا وأمه وإخواته كلياتنا ما عم نحسن عليه.. ونحن، على قولة الحكاية، أهله ومجبورين فيه، لكن الناس الغربا أيش ذنبهم؟.

- ما فهمت عليك، يعني مفكر تخليه هيك داشر في الزقاقات لا كار ولا كسب؟.

- يا سيدي فريد صحيح جسمه كبير، لكن لساته ولد، وكلّا على بعضا خمس سنين، أو ستة، وبيصير خَرج شغل، وبوقتا متلما طالعت إخوته خليل وجميل ع الفلاحة، بطالعه، وفضت يا عرب.

وقبل أن يفترقا، رجاه ألا يخبر مدير المدرسة بالموضوع، لأنه لا يريد أن يدخل في (قال وقلنا) حول فريد.

*****

-4-

كان أبو خليل يظن أن صفحة ذهاب فريد إلى المدرسة قد طويت، وهو على حق في ذلك، فقد مضى أكثر من ست سنوات دون أن تُفتح هذه السيرة أمامه.

ولكن هذه السنوات كانت مريرة جداً بالنسبة لأم خليل، فأبو خليل وخليل وجميل يذهبون في الصباح الباكر إلى الفلاحة، وتقوم هي إلى شغلها اليومي في الدار، تساعدها إحدى البنات عندما يلزم الأمر، بينما تبقى البنات الأخريات في غرفتهن يمارسن عملهن في التطريز، وشغل الكونويشا، وخلال هذا يكون لزاماً عليها أن تحل مشاكل فريد الطارئة، كأن يُقرع عليها الباب، تفتح فترى ولداً يبكي وقد وضع يده على جبينه، ويقول:

- يا خالتي أم خليل، هادا إبنك فريد ضربني بفردة الجاروخ.

- يبعت له ضربة في معلاقه انشالله. أنت إبن مين يا عين خالتك؟.

يخبرها بمن يكون، فتطيب خاطره، وتَعِدُهُ بأن تأتي اليوم لزيارة والدته، ومعها فريد لكي يعتذر منه. وإذا كان فريد موجوداً، تَلحقه وهي تحمل المكنسة، وتضربه بها، وأحياناً تمسكه وتطلب من الولد المضروب أن يضربه، وفريد لا يهتم للضرب، ولكنه يمثل دور المتألم، ويقول للولد:

- آخ يا يام، وجعتني، تاريك معزِم يا عكروت..

ويهجم عليه، فيهرب الولد، ويغيب فريد مبتعداً في الزقاق، وتعود هي إلى شغلها وهي تحوقل، وتحدث نفسها، داعية الله أن يصلحه، ويعقله، ويجعله يكف عن حب الأذى.

أم خليل امرأة مسالمة، وحريصة على استقرار أسرتها، لذلك كانت تحتفظ بأخبار مشاغبات فريد بينها وبين نفسها، تفكر بأن هؤلاء الرجال الثلاثة يعملون تحت جنح الشمس أكثر من عشر ساعات، وليس من اللائق أن تشغلهم، عندما يعودون إلى الدار ليرتاحوا، بمشاكل فريد المتكررة.

لكن الأمور خرجت من يدها ذات يوم، عندما فوجئت بقرع قوي على الباب بالقبضات والأقدام والعصي، وأصوات شبان هائجين يصيحون طالبين أن يخرج لهم رِجَالُ هذه الدار، لكي يعلقوا معهم في مشاجرة، ويجبروهم على أن (يضبوا) ابنهم المجنون المَجْلُوق.. وبصعوبة بالغة استطاعت أن تُسمعهم صوتَها، وأعلمتهم أن الرجال يعملون بالفلاحة في حقل "تكية طرماز"، وأنه لا يوجد في البيت، الآن، سوى النسوان، ورجتهم أن يُفهموها ملابسات المشكلة، فصاروا يتحدثون على نحو متداخل، حتى فهمت، وبصعوبة، أنهم أبناء سالم آغا الترمباوي، وأن والدتهم، أم كامل، كانت تغسل ثياباً في "طشت كبير"، بالقرب من باب الدار، وكان والدهم، سالم آغا، قد ارتدى ثيابه الرسمية، ووضع على رأسه الطربوش، وخرج لكي يقابل سيادة المحافظ، ويدعوه إلى وليمة عندهم في المزرعة، وبالصدفة مر فريد، وصار يصيح لكي يجاكر والدهم:

- شقك أحمر يا رمان.

فلما زجره سالم آغا، حمل طشت الغسيل من أمام أم كامل، ورشق الماء عليه، فتبهدلت حالته..

ندمت أم خليل على ما زل به لسانها أمام الفتية المهاجمين، عندما أخبرتهم أن أبو خليل وخليل وجميل يفلحون في "تكية طرماز"، وصارت تتخيل أنهم ذهبوا، خلال فورة دمائهم، إلى هناك، لكي يتشاجروا معهم، فما كان منها إلا أن أعطت خبراً للبنات بأنها خارجة لأمر ضروري، وذهبت إلى الحقل بسرعة، وعندما رآها أبو خليل وخليل وجميل دهشوا، ودب فيهم الخوف من أن يكون شيءٌ مكروه قد وقع..

*****

-5-

أكد أبو خليل لسالم آغا أنه أرسل الكديشين اللذين يفلح عليهما وعدةَ الفلاحة مع ولديه إلى الدار، وأتى إليه من البرية مباشرة، لكي يعتذر منه عما بدر عن ابنه الجحش فريد من تصرف أحمق، ويطيّب خاطرَه، وخاطر الأخت أم كامل..

قال سالم:

- لا لا، الشغلة بسيطة. أنا اللي بعتذر، لأن ولادي راحوا على داركم ودقوا الباب من دون علمي. ترى أنا بهدلتهم، ونبهت عليهم ما يعيدوها. (وضحك وقال) بتعرف؟ كويس أنه فريد رش عليّ مَيّة الغسيل قبلما إطلع من الدار، لأني ع الفور بدلت تيابي وطلعت، لكن تخيل لو أنا على باب السرايا بوقتها.. بعدين صارت شغلة بتضحّك، أجا قسم من المَيّ عَ الكزلُك، وأنا ما عدت أشوف قدامي، لولا أجت أم خليل وسحبتني كنت تزحلقت وانبطحت على طولي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. يا خجلي منك يا آغا، على كل حال أنا إلي عندك طلب، وبتأمل إنك ما تخجلني.

- تفضل أبو خليل. أنت زلمة محبوب، وكل أهل الحارة بتحلف براسك.

- بدك تشرفني اليوم في السهرة عالدار، في شغلة بدي أعملها بحضورك.

- خير يا أبو خليل؟ أشو هي الشغلة؟

- بدنا نمسك فريد أنا وإخواته، ونرفع له رجليه، وأنت بإيدك بدك تضربه.

مرة أخرى ضحك سالم آغا، وقال:

- لا يا أبو خليل. أنا ما بشتغل هيك شغلة. وإذا أنت بدك تضربه منشاني كمان ما بقبل.. خيو، بدك المختصر المفيد؟.

- يا ريت.

- فريد ولد، والولد ما بينعتب عليه.

*****

-6-

بعد ساعتين من البحث المتواصل في زواريب الحارة وزواياها، تمكن جميل من القبض على فريد، والإتيان به مخفوراً إلى الدار، ووضعه أمام والده الذي كان يبدو عليه الارتياح لأن سالم آغا تعامل مع الموضوع بحكمة، وأنهى المشكلة دون أن يترك لها أية ذيول.

زفر أبو خليل زفرة طويلة وقال لفريد:

- أشو بدي أحكي معك؟ جحش وفلتان وعم تعجّق برزق عباد الله. خَرْج تقلّي ليش رشقت طشت مَيّة الغسيل على سالم آغا؟.

- تكرم عينك ياب، بقلك، بس أنت بتصدقني؟
- هيه. معلوم بدي أصدقك. ليش إذا ما صدقتك أشو بيطلع بإيدي؟ هات لأشوف. احكي لي.

- ياب الحق بهاي الشغلة عليه هو. أنا لما شفته متطقّم، ومدنكز[1] طربوشه، ما وجهت له أي كلام، حَكيت مع الطربوش، قلت له (شقك أحمر يا رمان). قام هوي، سالم آغا، صاح فيني وقال: وقواس في عينك ولاك. ياب أنا ما زعلت لأنه قال لي (ولاك)، بس القواس في عيني لقيتها تقيلة. وأنا بعرف هدول الآغَوَات يمكن يكون عندهن فرد أو تفنكه، ويمكن يقوسني في عيني، قلت لحالي برشق عليه المَيّ، بيبطل يشوف، فإذا قوسني ما بيصيبني. صح ولا لأ؟

1- دنكز فلانٌ الطربوشَ أو العقال، إذا أماله نحو الأمام قليلاً..

أدار أبو خليل رأسه، متجاهلاً السؤال، ولعله تذكر أن الحوار مع فريد عقيم. وأم خليل بدورها أرادت أن تتلافى ما يمكن أن يحصل، وقد لاحظت أن في عيني جميل رغبة قوية في معاقبة فريد. لذلك تدخلت، وسحبت فريد من يده، وأخذته خارج الغرفة.

*****

-7-

أيد خليل وجميل والدهما في قراره الذي يتلخص بمنع فريد من مغادرة الدار خلال وجودهم في الشغل. أم خليل نفسها لم تعترض. قال لها، بعدما أخذت فريد إلى فراشه وعادت:

- يا مَرَا، فريد ابننا، مصيبتنا، منشان هيك لازم يبقى في دارنا، ديري بالك تخليه يطلع من الدار في غيابنا، إذا طلع، وعلق بمشاكل مع أولاد الجيران، أشو بدهم يقولوا علينا أهاليهم؟ أقل كلمة بيقولوا: اللي عندُه ولد مجنون لازم يضبُّه في داره.

هزت أم خليل رأسها وهي تتمتم ببعض الأدعية.
تابع أبو خليل يقول:

- أولاد سالم آغا مجانين، لما شافوا أبوهم عم ينهان فار دمهم وهجموا علينا وصاروا يخبطوا عالباب ويهددوا، تصوري لو ما طلع سالم إنسان عاقل، ولفلف القصة. كان بدنا بقى نترك شغلنا ونشيل عصي ونعلق معهم، وبعدها اللي بيموت مناخده ع جبانة الرام، واللي بيتصاوب ع المستشفى، واللي بيضرُب وبيقتُل ع الحبس. لك أشو هالجنون هاد؟.

امتثلت أم خليل لنصائح زوجها وتوجيهاته. وصارت، بعدما يغادر أبو خليل وخليل وجميل الدار في الصباح الباكر إلى الفلاحة، تُدخل درباس الباب الخارجي في إفريزه إلى آخر مداه، وتطلب من البنات أن

يبقين في غرفتهن لا يغادرنها إلا لعمل ضروري، لئلا يصطدمن بفريد فيؤذيهن.. وتذهب هي لتنظيف الدار، وترتيب أثاث الغرف، ثم تستقر في المطبخ حيث عملُها اليومي الأساسي.

ولكن حسابات السوق – كما يقول أهلُ الحكم والأمثال – لا تتطابق مع حسابات الصندوق، فما مضى على هذا الاتفاق سوى أسبوعين حتى أوصلها فريد إلى حافة الجنون.

*****

-8-

يستطيع فريد أن يلعب بعقل أمه متى يشاء. الأم، حقيقةً، هي الإنسانة الوحيدة التي يمكن أن يضحك عليها ابنُها، بالأسلوب ذاته، عشرات المرات، وفي كل مرة ينجح، لأن عاطفتها تجاهه هي التي تحركها، لا عقلُها.

يأتي إليها وهي تعمل، يتمسح بها مثل قط أليف، ويقول لها:

- يام، أنا جوعان.

فترد عليه تلقائياً:

- الجوع للقطة، ريتك يا فريد تقبرني، وتلحدني، وتشكل الآس عَ قبري. استناني في غرفة القعدة لبينما أجيب لك شي تاكله.

وتفتح "المنخلة"، تُخرج منها رغيفين تنوريين، تدهن سطحيهما بالزيت، وترش عليهما قليلاً من النعناع المطحون، أو الزعتر، أو الفليفلة المطحونة، وتدرجهما وتخرج وهي تصيح:

- وينك يا فريد؟

ووقتها لا يبقى نوع من الحيوانات إلا وتسمع صوتَه.. دجاجة تقوقئ بعد وضع البيضة، قطة محاصَرة في مكان ضيق تموء بألم، كلب جعاري مضروب بحجر يعوي بالمقلوب، جرو صغير يصيء، بقرة تخور.. تبحث عنه في غرفة الجلوس لا تجده، تفتح باب غرفة البنات، وعندما تجدهن منهمكات في نسج الحصر، وأعمال المخرز والكنويشا، تغلق عليهن الباب، وتعود. تدور في أرض الديار وهي تصيح:

- فريد. وينك لك إبني؟ من شوي كنت هون.

فيأتيها الجواب مرة من على السقيفة، ومرة من على السطح، ليس بالكلام وإنما بالخوار والعواء والمواء والنهيق، ثم يسكت، ويسود الصمت.. وفجأة تسمع صوت ارتطام جسمٍ ثقيل بالأرض. يهبط قلبها وتصيح:

- يا لطيف. أشو صار؟

فينطلق من مكان سقوطه، يأخذ من يدها لفافتي الخبز، ويركض بهما إلى إحدى زوايا الدار، يسند ضهره على تَعَامُدِ الجدارين، ويبدأ بالتهامهما.

*****

-9-

وذات يوم..

كان أبو خليل عائداً مع ولديه خليل وجميل من الفلاحة، فوجدوا الوضع في الدار مقلوباً على عقبيه. البنات أقفلن باب غرفتهن من الداخل، ووضعن الصوفاية (الأريكة) الكبيرة وراءه، وجلسن فوقها، وأزحن الملاءة، ووضعن وجوههن على الزجاج، ليرصدن ما يجري في أرض الدار، وأم خليل واقفة عند باب المطبخ، شعرها منكوش، وثوبها مبلل بالماء، ومتسلحة بملقط الغسيل، وهي تلهث. سألها أبو خليل:

- خير يا أم خليل؟ أشو القصة؟

قالت باكية: اليوم فريد مدَبِّن[2]، الله يغضب عليه، لولا أني خلّصت البنات من بين أيديه، وخبيتُن في غرفتُن، كان موَّتُن من الضرب. بَعدا طلع عَ العلية، وصار يلعب بالراديو، وأنا خفت ما يكسره، ومن كتر ما شديته وشدني، ودفشته ودفشني، انقطع حيلي.

سألها بالإشارة: وينه هلق؟

أشارت له باتجاه المطبخ.

استأذن خليل من أبيه، ودخل إلى المطبخ، وبعد قليل راحوا يسمعون أصواتَ عراكه مع فريد، حتى تغلب عليه أخيراً، وأخرجه إلى أرض الديار.

2- تقال كلمة "مدبّن" للحمار عندما تقرصه دبّانة من مؤخرته، فيستنفر. وتستخدم في وصف الإنسان عندما يثورويخرب ما يأتي في طريقه.

تنفس أبو خليل بقهر، وسأله:

- لك إبني، ليش عم تعمل هيك؟ مو حرام عليك تزعّل أمك وتضرب أخواتك؟ بعدين أنا قلت ما حدا يدخل عَ العلية في غيابي، ما سمعتني؟ ما بتخاف تلقطك الكهربا وأنت عم تقلّب بالراديو؟

قال فريد بلهجة توحي بأنه لم يكن مجنوناً في يوم من الأيام:

- ياب، هاي أمي إنسانة ظالمة.. كلما قلتلا خليني أروح عَ المدرسة بتقلي فَشَرْت. طيب ليش؟ كل رفاقي عم يروحوا. أنا بحب أتعلم، لو سجلتوني وأنا إبن سبع سنين، كنت هلق في الصف السادس. بصراحة ياب؟ أنت كمان مذنب بحقي وبحق إخوتي. كل أهل الحارة بيعلموا ولادُن، إلا أنت، الصبي بتستناه ليكبر شوي وبتاخده ع الفلاحة، والبنت بتخليّا في الدار وبتقول لأمي شغليّا بالمخرز وعلى طَارة القَنَويجا[3]. وأنا بعرف ياب أنت بالأصل ما كان عندك مانع أني أدرس وأتعلم، لكن مشكلتك بتعطي دانك لكلام الناس. على قد ما قالوا لك فريد مجلوق، وفريد مشطوط[4]، وفريد مجنون، خفت، وقلت لحالك بخلي إبني في داري أحسن لي. وهيك بتكون حرمتني من العلم وخليتني أصير طشم[5].

دهش أبو خليل من هذا الكلام المتوازن الذي يصدر عن فريد. وقال له:

- عم بسمع منك كلام بيخلّ العقل. أنت عن جد بتحب تتعلم؟

- طبعاً يا بابا!

3- الطارة هي قطعة خشب مستديرة، مُفَرَّغة، تضع الفتاة في داخلها قطعة قماش أو حرير وترسم عليها بالإبرة أو المخرز أشكالاً هندسية، عرفت باسم (كاناويشا)، تستعمل لتزيين الطاولات والمنصات الصغيرة.

4- مشطوط: يتصرف بميوعة.

5- طشم: غبي جداً.

انفلت أبو خليل بالضحك، على الرغم من الموقف المتوتر. ففي الحارة التي يسكنها مع أسرته، منذ نصف قرن، بل وفي مدينة إدلب كلها، قلما يستعمل أحدٌ كلمتي "طبعاً"، و"بابا".. الكل يقولون (أبويي)، وإذا أراد أي شاب أن يخاطب أباه بلباقة يقول له: ياب.

قالت أم خليل:

- دير بالك تصدق كلمة وحدة من كلامه يا أبو خليل، والله العظيم كذاب، ما جاب لي سيرة المدرسة، لا من قريب ولا من بعيد، ومع هيك أنا ما عندي مانع. خلي يروح ع المدرسة.. (وارتفع صوتها) روح بكرة، من الصبح، قَيّدُه في المدرسة.. عالقليلة منرتاح منه أنا والبنات كم ساعة كل يوم.

نفخ أبو خليل وقال متهكماً:

- أيوه. أنت بترتاحي منه، وبتبتلي فيه المدرسة!.

ابتسم فريد، وقال باللهجة المتوازنة نفسها:

- الله يسامحك يا بابا. ليش أنا بلوة؟

شعر أبو خليل، في هذه اللحظة، أن مشكلة فريد قد بدأت تكبر، وأنها سوف تدخل في مسار معقد، ولا سيما أنه أصبح قريباً من سن البلوغ. قال:

- طيب طيب. خلونا نتعشى بالأول، وبعدين منفكر على مهلنا.

*****

-10-

بعد العشاء، اجتمع أبو خليل مع زوجته وولديه الكبيرين.

قال مخاطباً أم خليل:

- استغربتْ موافقتِكْ عَ تسجيل فريد في المدرسة. يا بنت الحلال، هون، في الدار، بيطلع جنونُه عليكي، أو على أخواته، أو حتى عليّ أنا، وعلى خليل وجميل، وما حدا دَرْيان فينا.. لكن المدرسة فيها معلمين، ومدير، وآذن، وولاد، إذا عمل مشكلة مع حدا بتتبهدل شيبتي قدام أهل البلد، وممكن يحكوا عليكي أنتي، ويقولوا مانك مربية إبنك.

غرغرت عينا أم خليل بالدمع وقالت:

- الأم بتربي إبنا لما بيكون متل ولاد الناس، مو كل شوي بيمَعّي متل الجدي، أو الخاروف، أو بيعوي متل كلب، أو بينعوص متل القطة.

تنفس أبو خليل بعمق، وقال مخاطباً ولديه:

- شيء بيحط العقل في الكف. أمكم بتحكي لي عن مشاكل فريد، وأنا بصدقها، ولما أنا بحكي معه، بلاقي إنه ولد عاقل، ومسكين، وغلبان..

تدخل خليل ممازحاً: أي والله يا ياب، فريد عاقل وغلبان، وكمان مأدب، بيقول لك: يا بابا!

قالت أم خليل: بصراحة يا أبو خليل كلامك اليوم جديد عليّ. يعني لما بحكي لك عن مشاكل فريد بكون عم أكذب؟ هلق بدي أفتح لك الباب عَ البنات، خليهن يحكوا لك أشو عمل فيهن في غيابك.

- ما في داعي تحكي لي يا أم خليل. كلامِكْ عندي طابو[6]. بس أنا، بصراحة، محتار.

---

6 الطابو هو تسجيل العقار في دائرة المساحة. هذه العبارة تستخدم للتأكيد على صدق المتحدث.

قال جميل: ياب. أنا بشوف أنه فريد مو مجنون، لكن شايف حاله أصغر ولد في العيلة، مشطوط. أشو رأيك نساوي تجربة؟ منسجله في المدرسة، ومنستنى كام يوم، فإذا سبب لنا مشاكل، منلغي تسجيله، ومنرجعه عَ الدار، وكل أرض بتشرب المي تبعها.

قال خليل: في شغلة كلياتكم مانكم حاسبين حسابا: بلكي رحتوا لتقيدوه في المدرسة وقالوا لكم عمرُه كبير؟ بيكون كلامنا هاد كله راح عالفاضي.

- طولوا بالكم إنت وهوي. نحن كلياتنا ما منفهم بهاي الشغلات. أنا هلق بروح لعند الأستاذ علاء الرداد، وباخذ رأيه. علاء بيحبني كتير، مو ممكن يغشني.

ابتسمت أم خليل، دون إرادة منها، وتمتمت: علاء ابن القَيّمة؟

* * * * *

-11-

الأستاذ "علاء الرداد"، مدير مدرسة عمر بن الخطاب، واحد من أبناء الحارة الشمالية الظرفاء، وهو من أقارب عائلة أبو خليل الأباعد. إنسان فقير، كان في الرابعة عشرة من عمره عندما توفي والدُه، وكانت أخته علياء في الثانية عشرة.. الشيء الوحيد الذي أورثه إياه والدُه كان ورقة لونُها بيج، مشقوقة من كيس إسمنت، كَتَبَ عليها المرحوم، بخط يده، تفاصيلَ الديون المترتبة عليه!.

رافق علاء والدته، بعد انقضاء اليوم الثالث للوفاة، في جولة على الدائنين، وأكدا لهم أنهما على استعداد لتسديد ديونهم في أقرب فرصة، إن شاء الله، وسمعا من معظمهم عبارة (الله يسامح أخونا أبو علاء.. خلص، ما بدنا منكم شي).

وكان على أم علاء أن تشتغل، لكي تعيل ولديها علاء وعلياء، وتُمَكِّنَهما من متابعة تعليمهما، وتتجنب ذل تلقي المعونات والصدقات. ولأنها لا تتقن أي عمل، أو مهنة، فقد رضيت أن تعمل بوظيفة "قَيّمة"[7] في الحَمَّام.

أم علاء، في الأساس، امرأة خفيفة الظل، زادَها الفقرُ والترمل ظرفاً وفكاهة، ولعلها وجدت في حَمَّام السوق بيئة مناسبة للمرح والمزاح والضحك، فالنساء يعتبرن الذهاب إلى الحمام، مرة في الشهر، نزهة يمارسن فيها البذخ بعد طول تقتير، ويزيدهن التحرر من الثياب

7- القيمة: هي العاملة التي تخدم في القسم الداخلي من الحمام، وهي أدنى مراتب العمل في حمامات السوق.

والأغطية السميكة، والاغتسال بالماء الساخن والصابون، والبيلون المخلوط بأغصان نبات العطرية، انطلاقاً، ومرحاً، وميلاً للمزاح والمهاوشة والضحك. وكان هذا يظهر جلياً على نسوان الأغنياء (الأكابر) اللواتي يأتين إلى الحمام مرتين في الشهر، ومعهن مرافِقات يحملن لهن البقج، وكانت أم علاء تمازحهن (مع نبرة سخرية) بقولها للحاضرات:

- بعدوا من الطريق يا صبايا، مانكن شايفين أم حَمَّادة وأم قدور وأم حسون جايات عَ الحمام؟ يا أرض احفظي ما عليكي!

فيضحكن، وهذا يغريها بالاستزادة، فتضيف:

- جايين يغتسلوا من الجَنَابة، الله تعالى يحميهن من العين.. يا خيتي معلوم، البَسْط في الليل، بده "غسل" في النهار!

اكتسبت "أم علاء القَيّمة" شهرة واسعة، على مستوى المدينة كلها، والنسوة يتداولن نكاتِها في المجالس.. هي تعرف أن مهنتها تافهة، ومع ذلك تتباهي بأنها أحسن "قيّمة حَمَّام" في إدلب وضواحيها، ولها جملة شهيرة، تقول (مو كل مَرَا لَفّتْ على طيزا ميزر صارت قَيّمة!)، ولها حكايات تتضمن غمزاً ذا علاقة بالجنس، وأشهرها أن بضع نساء من الأكابر أردن أن يمازحنها، ذات مرة، فوقفن في وسطاني الحَمَّام، على بعد خطوات منها، وصرن يتهامسن، ويحركن أيديهن بإشارات عن حجم قضيب الرجل، ثم رفعت أم بَرجو عقيرتها بالقول:

- حرام عليكي يا أم قدور، إذا سمعتكْ القيمة أم علاء عم تحكي عن "الماخود" بينحرق قَلْبَا، المسكينة ما عندها (واحد) كبير، ولا حتى صغير.

وسرعان ما فكت أم علاء مئزرها القماشي، وجدلت مقدمته على

شكل قضيب ذكري مشرئب، وضعته تحت سرتها، وهجمت عليهن وهي تقول:

- مين قال لكن ما عندي واحد؟!

ويبدو أن علاء اكتسب خفة الدم من والدته.. يروي رفاقُه في دار المعلمين، أنه كان دائم التنكيت، وصوت الضحك كان ينبعث دائماً من مكان وجوده، سواء في الصف قبل دخول المعلم، أو في الباحة أثناء الفرصة التي تفصل بين درسين.

فُصل علاء من دار المعلمين، حينما كان في السنة الثالثة، نتيجة لحادثة ذاعت بين الناس، وصارت تُروى في المضافات، وفي اجتماعات النسوان الدَورية "القَبُول"، أو أثناء الخبيز على التنانير، ملخصُها أن مدرس مادة التعبير الأدبي، الأستاذ "أمجد الزَرْآن"، أعطى لطلابه، ومنهم علاء الرداد، وظيفة منزلية.. طلب منهم أن يكتبوا موضوعاً تعبيرياً عن "المعلم"، وقد نبههم إلى ضرورة الابتعاد عن استخدام الصفات السلبية، لأنها تقدم للناس أمثولات سيئة..

كانت أسرةُ المدرّس "أمجد الزَرآن تشتهر بالثراء، والبخل، والجشع، وربما كان أمجد أكثر أفراد أسرته بخلاً، ويلقب "حلاب النملة".. كتب علاء موضوعاً أدبياً على هيئة حكاية، ضَمَّنَها إشارات واضحة إلى أن بطلها هو الأستاذ أمجد الزرآن نفسه، واشتق اسم بطل الحكاية من اسمه، فجعله "مجيد الحمريويّ"، وكتب، في وصفه، أنه إنسان كريم النفس، عالي الأخلاق، متسامح، ورث عن والده أراضيَ مشجرة بالزيتون، وداراً فخمة واسعة، وصفيحة تنكية مملوءة بقطع نقدية من فئة الـ 100 ليرة سورية، ويوم آلت إليه كل هذه الأرزاق والأموال،

قال لنفسه (أنا لأيش بتلزمني هالمصاري كلّا)؟ وشرع يصرف، ويبذّر، حتى نفدت محتويات التنكة، فراح يبيع من أراضيه وعقاراته ويصرف.. ومما جاء في الموضوع أن "مجيد الحمريوي"، عندما يضع رأسه على المخدة لينام، لا يستطيع أن يغفو قبل أن يتوصل إلى قرار بإعانة بعض الأسر الفقيرة، أو إقامة وليمة دسمة للناس الدراويش المحرومين من أكل اللحوم والحلوى، وكانت الأفكار المتعلقة بالإنفاق عنده تتوالد وتتكاثر مثل الأرانب، فأول مرة أقام وليمة لم يحضرها سوى عشرة أشخاص، وفكر بأن هذا حصل بسبب ضعف الإعلان، وفي اليوم التالي أعادها بعدما اتفق مع مؤذن جامع الساحة، "الشيخ دحروجي"، أن يعلن عن موعد الوليمة في مكبرات الصوت الخاصة بالمئذنة، وبالفعل، تم ذلك، واجتمع على سفرته عدد كبير من الرجال.. ولكنه فكر في أنه ليس من اللائق أن يُنادى من المئذنة المخصصة للصلاة، لأجل الطعام، فاستعاض عنها بأن جعل لوليمته موعدين أسبوعيين، الأول بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء، والثاني بعد صلاة العشاء من يوم الخميس، وصار يقول للمدعوين المنهمكين بـ التشقيف والتكويم والهَدم والردم والزلع والبلع:

- صحتين يا أوادم. لا تنسوا موعدنا الجاي. خصمكم الله إذا ما بتبلّغوا كل أحبتكم، أنهم يجوا معكم..

* * * * *

تبين أن الأستاذ أمجد الزرآن قليل الذكاء. كان حرياً به أن يتجاهل هذا الأمر، لئلا يفتضح أمرُه ويصبح أضحوكة بين الناس، ولكنه اغتاظ، وأوقف علاء أمام الطلاب وشرع يوبخه، ويتهمه بالسخف،

والحقارة، والحقد، ثم قدم به شكوى إلى مدير دار المعلمين، الذي بدوره أحاله إلى مجلس الإدارة، مطالباً بفصله، بسبب سوء سلوكه.. وبالفعل، اجتمع المجلس، وقرر فصله لمدة ثلاثة أشهر، وكانت تلك فترة امتحانات، فرسب في صفه، ودخلت هذه الحكاية في ذاكرة المدينة، ويقال إن أم علاء القيمة، التقت بوالدة أمجد في الحَمَّام، بعدما عرفت بالحكاية، وقالت لها:

- الله يصلحُه ابنك، الأستاذ أمجد، كان لازم يتشكّره لعلاء، لأنه حوله من بخيل، حلاب نملة، لإنسان كريم، فاتح سفرته للناس، وعم يصيح العيش يا جوعان والمَي يا عطشان من ميكرفون المادنة!.

*****

-12-

لا يغيب عن بالي، أنا راوي هذه القصة، أنني أتحدث، بشكل أساسي ومباشر، عن الفتى فريد سبنَّان، ولكنني قدمتُ نبذة موسعة بعض الشيء عن الأستاذ علاء الرداد (ابن القيمة)، لما سيكون له، وأسرته، من شأن في سياق حكايتنا.

وفاتني أن أخبركم أن التسجيل في دار المعلمين، في ذلك الوقت، لم يكن سهلاً، فمَنْ يريد دخولها يجب عليه أن يُبرز وثيقة تثبت أنه فقير (ومشحَّر)، وأن يكون منتسباً لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان، يومئذ، يخطط لإخراج المعلمين المتديّنين من سلك التعليم، وإحلال معلمين بعثيين عقائديين محلهم. ولذلك فإن علاء الرداد، المحقِّق للشرطين (فقير وبعثي)، بمجرد ما تخرج من الدار، صدر قرار بتعيينه مديراً للمدرسة الوحيدة الموجودة في حارته، وقُبلت علياء في دار المعلمات، على الرغم من كونها غير بعثية، وقد كتب أمين سر الدار، في حقل الانتماء العقائدي: ابنة أسرة كادحة.

وكانت شقيقتُه "عليا" الفتاةَ الوحيدة في الحارة الشمالية التي تخرج دون غطاء رأس، أو كما يقولون: بالقَرْعَة. وهذا ما أغاظ رجال الحارة ونساءها، فكثر اللغط بينهم حولها، وفي يوم من الأيام، وبينما كانت أم علاء تعمل في جواني الحمام، تجرأت إحدى النسوة وسألتها عن سبب إصرار ابنتها على الخروج بالقرعة، فضحكت وقالت لها:

- روحي إنتي اسأليها، لَكِنْ إذا بُوْبَجتك[8] أنا ما دخلني!

وكانت عليا تزجر أي إنسان، رجلاً كان أو امرأة، بمجرد ما يبدأ بالتمهيد لطرح سؤال عن الحجاب، وتقطع عليه الطريق طالبة منه أن يغير السيرة حتى لا يقع بينهما زعل.. وذات مرة، جاء لزيارتهم ابنُ خالها أكرم وزوجته.. وأكرم لم يلجأ إلى التمهيد، بل قال لها مباشرة:

- ممكن أعرف ليش عم تطلعي بالقَرعة يا بنتي عمتي؟

فقالت له فوراً: لأنك قليل ذوق!

غضب، ووقف على نحو اعتباطي، ودفع كأس الشاي الذي قدمته له بقدمه، واتجه إلى الباب، وهو يبربر طالباً من زوجته أن تتبعه، وقبل أن يغادر قال لعلاء:

- لو كنتْ رجّال يا ابن عمتي علاء، ما بتخلي أختك تطلع هيك.

فنظر إليه علاء باستهجان، وقال له ببرود:

- غريبة منك يا بن خالي أكرم. أنا بحياتي كلها ما قلت قدامك إني رجّال! بعدين، طالما إنت رجال، وبهيمة، أنا لأشو بتلزمني الرجولة؟.

وأدار ظهره ودخل إلى غرفته، مُظهراً لأكرم مزيداً من الاحتقار.

*****

8- نقول (بوبَجتها) إذا ضربتها بفردة البابوج.

-13-

نعود إلى فريد، الذي كان قد امتلك فكرة وافية عن المدرسة، من خلال لعبه مع أولاد الحارة الذين يذهبون إليها، فعرف منهم أن فيها مجالاً رحباً للعب والشيطنة، والأفْلَمة على المعلمين والزملاء، وفي مساء البارحة، عندما عقد والدُه ووالدتُه وشقيقاه الكبيران اجتماعاً طارئاً في غرفة الجلوس، أدرك، بذكائه الفطري، أنهم اجتمعوا ليتدارسوا وضعَه، فجلس على أرض المطبخ، وصار يمشي زحلاً على مؤخرته، لئلا يَصدر عنه أي صوت، حتى وصل باب الغرفة، وألصق أذنه بفتحة القفل، وعرف، من خلال التنصت، أن مصير تسجيله في المدرسة قد أصبح مرتبطاً بقرار مدير المدرسة الأستاذ علاء (ابن القَيّمة).. لذلك، عندما صحبه والدُه، مساء اليوم التالي، إلى منزل علاء، صار يُخفض رأسه إلى الأسفل، ويُسبل رمشيه الأكحلين على عينيه الملونتين الجميلتين، وكلما سأله علاء سؤالاً يجيبه بالعبارات التي كان يسمعها من رفاقه التلاميذ السابقين:

- نعم أستاذ..
- كَلَّا أستاذ..
- متلما بدك أستاذ.

كان علاء قد سمع كثيراً عن جنون فريد، ولذلك تقصدَ أن يسأله بالفصحى، وهو يخفي ابتسامته الساخرة:

- ومَن تحبُّ أكثرَ شيءٍ في الدنيا يا فريدْ؟

فجاوبه فريد بلهجة منغمة: أحب بابا وماما، يا أستاذ!

- ومعلموك وزملاؤك يا فريد؛ ألا تحبهم؟
- نعم أستاذ. أحِبُّ معلمي وزملائي وكل الناس!

وافق علاء، بحماس، على قبول الولد المطيع المهذب فريد في

مدرسته، على الرغم من تقدمه في العُمر على تلاميذ الصف الأول، وقال لأبو خليل، بطريقته الحائرة بين الجد والتهكم، إن تخوفه من أن تبدر عن فريد تصرفات طائشة ليس في محله، فما شاء الله عليه، مثل النقطة في المصحف، وبخصوص العمر، يمكن أن ننتظر فترة، نراقب فيها استجابته للعلم، فإذا كان فالحاً، كما يتوقع، يمكن لأبو خليل أن يرفع دعوى على مديرية السجل المدني، وينزل عمره إلى سبع سنوات، ووقتها لا يستطيع أحدٌ أن يلومه على قبوله. وطلب منه أن يشتري له، الآنَ، حقيبة مدرسية، ودفاتر، وأقلاماً، ومسطرة، وبراية، وممحاة وصدرية قماشية لونُها بيج، ويرسله صباح الغد في تمام السابعة والنصف صباحاً، إلى المدرسة.

وختم كلامه متمنياً لفريد مستقبلاً مشرقاً.

مشى أبو خليل مع فريد، بضعَ خطوات باتجاه داره، وفجأة توقف، وعاد، وطرق الباب على علاء، ولما فتح له، شرح له أن خِياطة الصدرية قد تستغرق وقتاً عند الخَيَّاطة "الحاجة خدوج"، فهل هناك ما يمنع من أن يذهب فريد إلى المدرسة، في الأيام الأولى، بثيابه العادية؟

قال علاء: أبداً عمي أبو خليل، ما في مشكلة.

في طريق العودة اشترى أبو خليل لابنه المهذب، فريد، حقيبة على هيئة متوازي المستطيلات، مصفحة بتنك مُذَهَّب، ووضع له في داخلها اللوازم المدرسية التي ذكرها علاء، واشترى قماشة خاصة بصَدَاري المدارس، وسلمه إياها وقال له:

- خلي أمك تفصل لك إياها عند جارتنا الحاجة خدوج.

- نعم بابا. أمرك بابا.

* * * * *

-14-

كان منظر فريد، وهو ذاهب إلى المدرسة، برفقة أولاد الحارة، يبعث على الضحك.. فهو أكبر منهم سناً بست سنوات، تقريباً، وأطول من أطول واحد فيهم بشبر، يمشي، ويهتز قسمه العلوي كما لو أنه هوائي التلفزيون الذي صار يُزْرَع، في تلك الأيام، على أسطحة منازل الأغنياء لتقوية الإرسال.. يرتدي شروالاً بلدياً أسود (شنتيان)، وقميصاً (ملتان) مخططاً، مفتوحاً من الأعلى، وينتعل جاروخاً ديرياً ذا إصبع واحدة.. وقد ظهرت عليه، منذ اليوم الأول للذهاب إلى المدرسة، علائمُ خفة الدم – اللهم عافِنا – فكان يَهمر، أثناء المشي، كما لو أنه ضبع، ثم يلتفت نحو الولد الماشي بجواره، ويقول له:

- لا تخاف ولاك.. إذا الضبع شافني ماشي معك ما بيسترجي ياكلك ويفصفص عضامك.

وينفلت بالضحك، ثم يستخدم حرف الكاف للتوقف، مثل سيارة مسرعة يستخدم سائقُها المكابح لإيقافها، فيقول: هيهي هيهي هيهي.. كك. كككككّ. وفي الآخر يقول: فش ش ش ش.

ويتوقف عند الباب الخارجي للمدرسة، ويقول للتلاميذ:

- هون حفرنا وهون طمرنا. بعرض أختي نذيرة وأختي سلمى اللي بيخبّر الأستاذ علاء أني عم بمزح معكم لأقص رأسه.

* * * * *

-15-

لم يكن علاء يتوقع أن تبدأ المشاكل بعد ثلاثة أيام – فقط – من دوام فريد في المدرسة. ويبدو أنها بدأت منذ اليوم الأول، ولكنه لم يَدْرِ بها. كان يرتب بعض أوراقه في غرفة الإدارة، عندما دخل عليه معلم الصف الأول "الأستاذ عبد الله" مصطحباً معه فريد، فتعوذ، في سره، من الشيطان الرجيم، وقال لعبد الله:

- خير أستاذ؟

وضع عبد الله يديه على كتفي فريد الذي يقاربه في الطول، وراح يشرح عليه، كما لو أنه "وسيلة إيضاح": بربك وبدينك يا أستاذ علاء؛ هادا موديل تلميذ أول ابتدائي؟ أول شي مشرّفنا بلا صدرية، وتاني شي لابس "شنتيان"، وشنتيانُه، مشقوق من تحت، وحضرتُه مبسوط على هذا الوضع، كل دقيقة بيعمل تهوية، وأثناء التهوية بتبين (بضاعتُه)[9]، لأنه، ولله الحمد، بلا كلسون.. وبدال ما يلبس صباط، أو جزمة، أو شحاطة عادية، جاييني بالجاروخ الديري.. أنت، يا أستاذ علاء، بتعرف كيف بيمشي القبضاي "التوم"[10] وبيشحَط قدامُه بالأرض. يا سيدي هالتلميذ النجيب، فريد سبنَّان، طول الدرس بيتفتل في أرض الصف، وبيطشّ بجاروخه متل "التوم".

مشاعر متناقضة كانت تتناوب في الارتسام على وجه علاء، بين الدهشة، والندم على قبول فريد في المدرسة، والاستطراف.. قال:

9- تطلق كلمة بضاعة على مجموع زب الرجل وخصيتيه. ويقال لها، أيضاً: الحَوَس، والمحاشم.

10- شخص حقيقي، قبضاي من أسرة بالوش، في إدلب، قُتل في مشاجرة طاحنة مع قبضاي من أسرة هارون.

- الحق معك أستاذ عبد الله، لكن معظم تلاميذ الصف الأول، متلما بتعرف، بيجوا في الأيام الأولى من دون صدرية.. لأن الأب بيشتري قماشة الصدرية، وبياخد إبنُه ع الخَيَّاط حتى ياخذ له القياس، ولحتى تصير الصدرية جاهزة بدا شوية وقت.

قال فريد، مصححاً فكرة الأستاذ علاء، بلباقة هائلة:
- نحن ما عنّا خياط زلمة في الحارة يا أستاذ علاء. أبويي اشترى لي القماشة، وأخدتني أمي معا لعند الحاجة خدوج، وأخذت لي القياس.
قال عبد الله باندفاع:
- خَيّاط، خَيَّاطة، جليلاتي، برادعي.. مو هاي المشكلة. يا سيدي سامحناه بالصدرية.. يا أستاذ علاء هذا الولد إإإ.. أستغفر الله، كنت بدي أقول بحقه كلمة يواخذني عليها ربي يوم الحشر. قصدي أقول، إن هالولد مستهتر بالمدرسة وأهلها، تصور، أنا كنت عم بكتب كلمات على اللوح قبلما أشرح الدرس، سمعت التلاميذ عم يضحكوا ورايي، التفتّ، شفته عم يعمل حركات بإيديه وتمّه ومنخاره، قولْ إنه سعدان ولا تخافْ، أستاذ علاء، قسماً بالله حتى أدانيه كان عم يرقّصُن.

قال علاء لنفسه، والابتسامة مرتسمة على وجهه: (يا سلام. الظاهر بلشت الكوميديا في مدرستنا). وتوجه بالسؤال إلى عبد الله:
- أستاذ، أنت ما حاولت تفهم منه ليش كان يقوم بهاي الحركات؟
- حاولت، طبعاً حاولت.. بس هوي صار يلف ويدور ويتبعبص بالحكي، مرة يدعي أنه رجلُه نَمَّلت، ومرة بيقلي إن عنده توصيلة طحين ع الفرن على ظهر الجحش، والجحش من دون بردعة، وصار يجبر واحد من رفقاته على تمثيل دور الجحش، ويسوقه للولد، ويغني، آه لو

أنك تحضره مرة وهو يغني، يستحيل تعرف بأينا لسان عم يغني، بالأرمني، بالطلياني، بالكردي، الله أعلم.. آخر شي قال لي إنه بده يقيس الصف بالفشخة، لأنه راح يطلب من والده يعمر له صف عَ حسابُه. ليش؟ قال لأنه بيحب العلم كتير. تصور، هاد الأجدب بيحب العلم!

- طيب أستاذ عبد الله، عَيّنْ خير.

- أينا خير يا أستاذ؟ أنا لسه ما خبرتك بالشي المهم.

- يا سلام! كل هذا وما وصلت للشي المهم؟ تفضل.

- كان عندنا درس "تعبير". دخلت ع الصف في الفرصة، قبلما يدخلوا التلاميذ، رسمت عَ السبورة قفص، جواته بلبل. التفتت، لقيت فريد واقف وداير وجُّه ع الشباك، وعم يحكي مع شخص وهمي، بالإشارات، والتلاميذ عم يلاحقوا الشخص الوهمي بالنظر، صحت فيهم. التفتوا علي. سألته:

- أشو عم تعمل يا فريد؟

قال لي: أنا حابب أخدمك، شفت دبانة طايرة ورايحة لعندك، بدها توقف على رقبتك وتقرصك، فأجبرتَا تطلعْ من الشباك.

هون، يا أستاذ علاء، خطرت لي فكرة، وهي أن أشغْلُه بالدرس، بلكي هوي ما يشغلنا بالشغب.

قلت له: تعال يا فريد، وقفْ قدام السبورة.

وقلت للتلاميذ: خلونا نعمل تجربة.. منفترض أن زميلكم فريد سبنَّان هوي المعلم، وأنا تلميذ مثلكم، ورح أقعد بيناتكم، وفريد بده يشرح لنا الدرس.

فريد عجبته الفكرة، وباشر بإعطاء الدرس فوراً.

قال لرفاقه: اسمعوا يا بهايم، ركزوا معي، ترى درسنا صعب كتير. عنوان الدرس هو الزنبيل والمجرفة. وحط يده على القفص، وقال: هادا

زنبيل كبير، بس فاضي، ما فيه غير هاي المجرفة، وحط إصبعته عَ البلبل. المجرفة بتحب الحرية، منشان هيك بتغرّد، وبتطلب من صاحب الزنبيل يفتح لها باب القفص، ولما بيفتحُه بتطير، وبتعلّي، بتلاقي في الجو مجارف كتيرة.. وصاح لرفيقه: تعال عبد العزيز وقف هون.

قرب منه عبد العزيز وهو مرعوب، وقال له: أشو بدك يا فريد؟ ضحك فريد وقال للتلاميذ: رفيقكم عبد العزيز طشم، أنا الأستاذ فريد، وهوي عم يقلي "فريد"، بتعرفوا أشو عقوبة هالتصرف؟ ورفع أيده، بده يضرب عبد العزيز، فركضت أنا، ومسكت إيده. ولكنه تنمر، وصار يقاومني ويقلي: اقعود يا تلميذ عبد الله، زميلك عبد العزيز أخطأ ولازم يتعاقب. وبعد جهد جهيد تمكنت منه، وطردته لبرات الصف.

قال علاء ببرود مغيظ: برأيك أستاذ عبد الله؛ هادا جنون ولا نوع من الملعنة؟

- أنت عم تبسط الأمور يا أستاذ علاء، وبتحصُر حالته بين الجنون والملعنة. برأيي أن فريد عنده: جنون، وهبال، وقلة وجدان، وقلة ذوق، وحقارة، وسرسرة، وخبث، وملعنة، وتفاهة، ونذالة، وشراسة، ومتلما بيقولوا أهل السياسة: عنده "نزعة ديكتاتورية"! الله يستر الناس والعباد إذا في الأيام استلم فريد منصب سياسي. الله وكيك مجرم من الطراز الرفيع.

وأدار ظهره وغادر غرفة الإدارة.

* * * * *

-16-

نادى علاء الآذِنَ عُمير، وطلب منه أن يبقى في غرفة الإدارة، وأوصاه أن يقول لمن يسأل عنه إنه خرج لأمر ضروري. وطلب من فريد أن يمشي معه.

فريد يمشي بجوار علاء بمنتهى الاحترام، وبين الحين والآخر يسترق النظر إلى وجهه، لكي يقرأ انفعالاته، متوقعاً، ربما، أنه سيتكلم معه ليعاتبه على ما سمعه من المعلم عبد الله.. ولكن علاء كان شارداً، يدوّر في عقله أفكاراً كثيرة، متضاربة، منها أن يذهب إلى العم أبو خليل، ويصارحه بأن ابنه لا يصلح للمدرسة، وأنه لا يوجد ما يدعو لأن يصغر عمره مثلما اقترح عليه من قبل.. ولكنه سرعان ما تراجع عن هذه الفكرة، متوقعاً أن أبو خليل سيزعل منه، ويقول له:
- الحق عليك يا أستاذ علاء، أنا بعرف إبني أهبل، وأنت اللي قنعتني أنه عاقل وممكن يتعلم.

لا لا. الأفضل أن يوصله إلى داره، ويتركه ويرجع إلى المدرسة.. وفجأة ضحك، وقال لنفسه: إذا سألني الأستاذ عبد الله عن فريد، سأقول له: وَدَّرْتُه[11]. أو... ما رأيك؟ (سأل علاء نفسه) ما رأيك أن آخذه إلى دارنا وأعرِّف عليه والدتي وزوجتي وأختي علياء؟ مسكينة علياء، من يوم أن حردت من بيت زوجها، وفمها لا يفترّ عن ابتسامة. مع أنني طلبت منها أن تنسى زوجها، الرجل الذي لا يستطيع المرء أن يحاوره

11- كانوا، إذا تضايقوا من قط منزلي، يضعونه في كيس، ويسافرون به إلى مكان بعيد، ويفلتونه، لئلا يعرف طريق العودة، وإذا سألهم أحد عنه يقولون: وَدَّرْناه.

بجملتين، إذ سرعان ما يكدّش، ويا ليتها تطلب منه الطلاق، فهذا هو الحل الوحيد مع مَن كان مثله. أحسن شيء أن يجتمع فريد بأمي، وتأخذه معها إلى سهرات نسوان الأكابر، وطالما أنه يغني، كما أخبره عبد الله، لابدّ أن يطربهن!.

قُطعت سلسلة أفكار علاء فجأة عندما قال له فريد:

- أستاذ علاء. بدي خبرك بشي.

رد عليه علاء متهكماً: تفضل (أستاذ) فريد، خبرني.

- إذا كنت آخدني ع دارنا منشان تسلمني لأبويي، ما راح تستفيد شي. لأن أبويي اليوم مسافر.

- مسافر؟ أبوك طول عمره بيبكّر ع الفلاحة، وبيرجع بعد العصر، بعمره ما طلع من إدلب.

- كلامك صحيح أستاذ، لكن اليوم سافر منشان يحل مشكلة الخف.

- أينا خف؟ بتقصد خف الفلاحة؟

- كلا أستاذ.. أبويي عنده خف فلاحة، وأخوي خليل عنده خف، وأخوي جميل عنده خف. بصراحة يا أستاذ، الخف إلي أنا.

دهش علاء وقال: بده يفصّل لك خف؟ يعني بدك تترك المدرسة وتطلع معهم عَ الفلاحة؟

- كلا أستاذ، كلا، أنا أحب المدرسة، ولا أحب الفلاحة.. ولكن، وقت جينا لعندك، أنت طلبت من أبويي يشتري لي خف للرياضة. صح؟

- أنا ما قلت "خفّ" يا فريد. قلت "خفافة" رياضة.

- نعم أستاذ. وأبويي، بوقتها، وقع في مشكلة. أخذني معه إلى السوق، وصار يدور، من كندرجي لكندرجي، ويطلب منهم خف رياضة على

مقاس رجلي. المشكلة يا أستاذ علاء أن النُمَر الولادية اللي في السوق زغيرة على رجلي، والنمر الرجالية كبيرة عليها.. زعل أبويي كتير، ولما رجعنا ع البيت، مدت أمي سفرة العشاء، وقالت له: تعال كُولْ يا مرعي... قال لها: ما لي نفس..

وحكى لها قصة نمرة رجلي. وصار يقول عن نفسه إنه منحوس، لأن النمر اللي في السوق إما ولادية أو رجالية، وما في قياس تالت. بعد شوية دخل خالي نبهان، ولما عرف سبب زعل أبويي، قال له: روح ع سَلْقين، اسآل عن دكان (مَلِكْ المُحَيَّرْ). نعم أستاذ، وحكى خالي لأبويي عن كندرجي في سلقين، اسمه أبو رشدي شمروخ، بيفصّل كنادر للأولاد اللي أقدامهم كبار متلي. وقتها انشرحتْ نفس أبويي، وأكل ستة أرغفة، وقال لأمي إنه بكرة راح يحل من الفلاحة ضحوية النهار، ويسافر ع سلقين، حتى يفصل لي خف رياضة يناسب قدمي.

وقع الأستاذ علاء في مأزق. فمع أن رائحة الكذب تفوح من هذه الحكاية إلا أن قسمات الفتى فريد وهو يرويها كانت تدل على براءة استثنائية.

فريد أخرج علاء من الحيرة إذ قال له:

- أستاذ، إذا مانك مصدق كلامي، روح معي على دارنا، واسآل أمي، فإذا لقيتني أكذب ارفعني فلقة..

وتقدم إلى أمام علاء، ووقف له بالعَرض، وقال: أستاذ خطرت لي فكرة.

- قول.

- الولد اللي بيكون لابس خف رياضي بياخد وقت حتى يفك

الرَبَّاطات ويشلح الخف، حتى ينضرب فلقة، أما اللي لابس الجاروخ ما في أهون من ضربه فلقة.. يعني هيك. (وتخلى عن فردتي الجاروخ، واستلقى على الأرض ورفع رجليه إلى الأعلى).

لم يتمكن علاء من السيطرة على نفسه. ضحك مقهقهاً. ولكنه شعر بالإحراج عندما التفت يساراً فرأى، في آخر الزقاق، بضعة رجال ينظرون باتجاههما باستغراب، فسارع إلى مد يده إلى فريد، وسحبه وهو يقول له:

- قوم وقف. الله لا يوفقك، فضحتنا. مفكرني ما بفهم عليك إذا ما مثلت لي الجريمة؟!

وتابعا سيرهما.

ساد الصمت بينهما مرة أخرى، وراح علاء يفكر في إيجاد وصف دقيق لشخصية فريد، فقال لنفسه: جنونه ملتبس، وكذبه من النوع المتسلسل.. يكذب باطمئنان، فإذا انكشفت أول كذبة، يمكنه أن يفبرك كذبة ثانية، وكلما انكشفت واحدة يأتي بغيرها، بتلقائية عجيبة، حتى يملّ مستمعُه من أكاذيبه ويتوقف عن مطالبته بأدلة.. وهناك مسألة أخرى؛ الكذب شأن خاص بالعقلاء، بينما فريد مجنون، ومن عادة المجانين أنهم لا يبالون بشيء، لذلك لا يكذبون. أم لعله عاقل ونحن نخطئ في النظر إليه؟ لا، لا. مستحيل. مستحيل أن يكون عاقلاً.

*****

-17-

كانت أم خليل تعلّم ابنتها الصغرى، خيرية، الخطواتِ الأساسية لطبخ الرز بشعيرية، عندما سمعتْ طرقاً على الباب. قالت لخيرية:

- اعملي متلما قلت لك، دقائق وبرجع لعندك.

فوجئت أم خليل، عندما فتحت الباب، بالأستاذ علاء ومعه فريد.

قال علاء:

- كيفك خالتي أم خليل؟ بدي أسألك: عمي أبو خليل رجع من سلقين ولا لسه؟

ردت عليه كما لو أنها تكلم نفسها:

- سلقين؟ من أيمتى أبو خليل بيروح إلى سلقين؟ يا خاي هوي في الفلاحة من الصبح..

- أيوه. طيب ولا يهمك خالتي. لما يرجع خَبريه أني منتظره بكرة في المدرسة.

بعد مغادرة الأستاذ علاء، وقعت السيدة أم خليل في حيرة، فمجيئه إلى هنا في منتصف النهار، بصحبة فريد، غريب جداً، والأغرب من ذلك ما سمعته عن ذهاب أبو خليل إلى بلدة سلقين، فهذه البلدة تبعد عن إدلب مسير ساعة بالسيارة.. وهو لا يعرف أحداً هناك، أصلاً هو لا يترك عمله في الفلاحة مهما كلف الأمر، ثم لماذا لم يدخل فريد إلى البيت؟ ألم ينته دوامه في المدرسة؟ لا بد أنه بقي واقفاً في الزقاق.

سمعت صوت خيرية، تناديها:

- يام، وينك؟ بطفّي البابور؟

أم خليل لم ترد. عقدت قطعة الشاش البيضاء حول رأسها، وخرجت إلى الزقاق. رأت فريد واقفاً بين مجموعة من الأولاد، يتحدث وينط وينزل أمامهم وهم يضحكون، نادت عليه أن يأتي، فقال لها:

- ادخلي ع الدار أحسن ما يشوفوكي الزلام. أنا جاي.

عادت إلى الدار وهي تبربر قائلة لفريد عن بعد:

- يلعن جنونك يا فريد.. أيش بيصير إذا شافوني الزلام؟

وبينما هي ترفع "الشاشية" عن رأسها، هبط قلبها من شدة الخوف، إذ سمعت صوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض. التفتت فوجدت "فريد" يُسقط نفسه من فوق سور الدار، فقالت:

- يا لطيف يا ساتر. لك إبني ليش ما بتدخل من الباب؟

اقترب منها، ووقف قبالتها، وقال بلهجة ظاهرُها الاحترام والبر:

- يام أنا براعي مشاعرك. إذا دقيت الباب يمكن تخافي، وتفكري أن الشرطة عم يدوروا على أخويي جميل منشان يسوقوه ع العسكرية، وبدك تتعبي نفسك بفتح الباب، وإنتي امرأة كبيرة، على حافة قبرك.

أيقنت أم خليل أن نسبة الجنون عند فريد مرتفعة الآن، فراحت تتودد إليه:

- حبيبي فريد، تقبرني إن شاء الله، وتحط الآس على قبري، قل لي: أيش بُه الأستاذ علاء؟ ليش أجا لهون؟ ومين قال له لعلاء إن أبوك في سلقين؟

- يام، أنا متلما بتعرفيني، بحكي القصة متلما صارت، وأبغض شي عليّ بهالدنيا الكدب.

- أي بعرف تقبرني. احكي لي لشوف.

- طيب تعالي. اقعدي جنبي.

وقعدا، كلاهما على المسطبة التي يضعون عليه سفرة الطعام في الصيف. قال فريد، بطريقة بالغة التركيز:

- أنا قاعد في صفي، بأمان الرحمن، والأستاذ عبد الله عم يشرح لنا درس (بابا وماما وباسم ورباب)، وما نشوف غير دخل الآذن عُمير، وقال: فريد سبنَّان، المدير طالبك، أنا، يا يام، ماني كسلان، رحت ع الإدارة بسرعة. وقفت قدام الأستاذ علاء باستعداد. وقتها حكى لي قصة غريبة كتير. قال لي إنه اشترى تنكة زيت من سوق الخانات، وفي البيت أجت أمه، أم علاء القَيّمة، فضّتا في الخابية، قام طرطش الزيت على قنباز بنتا عليا، بنتا المعلمة اللي بتطلع بالقرعة، مدت أم علاء لسانها ولحست الزيت عن القمنباز، لقت طعمته مَي، فعرفت أنه مغشوش، البياع الحقير أشو عامل؟ معبي التنكة مَي، وحاطط على وجهها طبقة رقيقة زيت. الأستاذ علاء راح لعند البياع، وقال له: أنت غشاش.. فقال له: لا تصرخ يا أستاذ علاء، حتى ما يطقّ لك عِرق، أنا اشتريت هالتنكة من مرعي السبنَّان، أبو خليل، وهوي مشتريها من تاجر سلقيني اسمه أبو رشدي شمروخ، "ملك المحيَّر".. واليوم أخد أبو خليل أولاده، جميل وخليل، حتى يعملوا قَتلة لملك المحير، ويخلوه يرجع تمن الزيت المغشوش بالقوة. لما حكى لي الأستاذ علاء هالحكي، بتعرفي أشو جاوبته؟

- أشو؟

- قلت له، يا أستاذ علاء، أنا مشغول بدروسي ومذاكراتي، وما بعرف أي شي عن قصة الزيت السلقيني. تعال معي لنسأل أمي. صحيح، يام، أبويي سافر عَ سلقين؟ ولا هادا بياع الزيت كذب ع الأستاذ علاء؟

* * * * *

-18-

مساءً.. رأى فريد والدَه وشقيقيه عائدين من الفلاحة، فتعلق بحافة السقيفة الخاصة بالمؤونة، وقفز بطريقة بهلوانية، وخلال ثوان كان منبطحاً على بطنه بين مرطبانات الجبنة والدبيركة وأكياس العدس والبرغل وتنكات الزيت، وتجمد في هذه الوضعية، لا يصدر عنه أي صوت أو نأمة.

قال أبو خليل: قواكي ألله يا أم خليل. أشو؟ ما رجع فريد من المدرسة؟

- أي لكان. رجع. يا الله فوتوا، غسلوا أيديكم، وبدلوا تيابكم، وتعالوا ع العَشَا.

أم خليل إنسانة لبقة، لم تذكر شيئاً عن مجيء الأستاذ علاء بصحبة فريد إلى هنا، ولا عن حكاية تنكة الزيت المغشوش، قبل انتهاء زوجها وولديها من تناول الطعام. ولكي تبعد تفكيرهم عن وجود مشكلة تصد أنفسهم عن الطعام، قالت:

- اليوم خيرية تعلمت طبخ الرز بشعيرية، طلع معها شي ناهي.

وبعد انتهائهم من تناول العشاء، وزعت عليهم كؤوس الشاي، وقالت مخاطبة أبو خليل:

- اليوم دق علينا الأستاذ علاء الباب، وسألني إذا كنت بدك تسافر، أو أنك سافرت ع سلقين، وطلب أنك تمر عليه في المدرسة بكرة الصبح.

تابع أبو خليل كلام زوجته بكثير من الاندهاش. وقال:

- أنا بدي أسافر عَ سلقين؟ أشو بدي أعمل في سلقين؟ وشلون بدي أزور علاء بكرة الصبح؟ ما خبرتيه أني بروح عَ الفلاحة بعد صلاة

الصبح وما برجع للمغرب؟ إذا ما رحنا ع الفلاحة مين بده يطعمي كل هالعيلة يا مَرَا؟

وزفر وقال: أكيد فريد عامل مشكلة في المدرسة!

تدخل خليل قائلاً: بقلك، وما بتزعل مني، ياب؟
- قول.
- نحن زَغَّرنا عقولنا وبعتنا هالمجنون ع المدرسة، ولازم بقى نتحمل المشاكل اللي بتجي من تحت رأسه.

التفت أبو خليل إلى زوجته، وقال: قسماً بالله كلام خليل صحيح. وينه هالمنحوس؟
- والله ما بعرف. كان هون قبلما تجوا. وعلى فكرة، أنا سألت فريد عن قصة سلقين..
- أي؟ وأشو قال لك؟
- قال لي إن الأستاذ علاء اشترى تنكة زيت من سوق الخانات، وتبين أنه مغشوش، فعلق مع البياع..
- أي؟.. وأنا أشو دخلني بهذا الموضوع؟
- طول بالك.. وعلى حسب ما حكى فريد، البياع قايل لعلاء إنه اشترى الزيت المغشوش منك!

وقف أبو خليل فجأة، وخلال وقوفه أصاب كأس الشاي بقدمه، فسُفحت على الأرض، وقال لأم خليل:
- إنتي مجنونة ولا خرفانة؟ ولَّا الأستاذ علاء كمان طق عقله؟

واتجه نحو الباب، فلحق به ولداه خليل وجميل، ومشى مسرعاً في الزقاق وهما يلحقان به، ويناديان عليه أنْ انتظر. وصاح جميل:

- طول بالك ياب، أنت ما بتعرف أن أخويي فريد كذاب؟

أبو خليل لم يرد، استمر يمشي بسرعة، حتى وصل منزل الأستاذ علاء، وكبس زر الجرس بقوة..

كان الأستاذ علاء قادماً من السوق، ورأى أبو خليل وولديه قادمين مستعجلين، فأسرع الخطى نحوهم، سلم عليهم، ودعاهم للدخول.. دخلوا.

* * * * *

-19-

عندما سمع علاء حكاية الزيت المغشوش انقلب على ظهره من شدة الضحك، وقال:

- أنا هلق مصرّ على تعليم فريد أكتر من أي وقت مضى. راح يكون، بإذن الله كاتب كبير، مو أقل من ولاد الشيخ زهدي الكيالي[12].

قال أبو خليل: أشو عم تقول أستاذ علاء؟ قصدك أن كل هالقصة ما لها أساس؟

- طبعاً ما لها أساس. حضرته، فريد، شرفنا في المدرسة، لابس جاروخ ديري، سألناه عن السبب، فقال إنك ما لقيت له خف رياضي على مقاس رجليه في إدلب، فسافرت ع سلقين لعند واحد من بيت شمروخ.

نفخ أبو خليل نفخة تحرق بيدر، وقال لعلاء:

- أخي أنا غلطت غلطة كبيرة، لا والله، لأ، مو غلطة، تجحيشة، من الآخر، أنا جَحَّشت. وبدي أصلح غلطتي. لازم فريد يترك المدرسة في الحال.

ابتسم علاء وقال: طول بالك عمي أبو خليل، القصة ما بتستاهل كل هالشي. روح أنت على شغلك، وخلي فريد بأمانتي.

- يا أستاذ علاء أنا..

- متلما عم أقلك عمي أبو خليل. اترك لي اياه، وما راح تندم.

- طيب. لكن بشرط.

---

12 المقصود مواهب كيالي وحسيب كيالي اللذان يكانا يعرفان في إدلب بلقب (ولاد الشيخ زهدي).

- تفضل.

- كذبة سلقين ما بْعَدّي لُه يَاها. أنا اليوم، بضربُه في الدار، وأنت ارفعه فلقة بكرة في المدرسة قدام كل المعلمين والولاد.

- آ؟.. لا لا، لا ما في داعي للضرب، الولد بيتعقد.

- نعم نعم نعم؟ بيتعقد؟ طيب يا سيدي، أنت حر لا تضربه، لكن أنا بدي أعمل له قتلة، وخليه يتعقد على مسؤوليتي.

*****

-20-

لم يتمكن أبو خليل وولداه من تنفيذ الوعد بمعاقبة فريد بالضرب، ففريد كان متأكداً من أن الأستاذ علاء سيخبر والدَه وشقيقيه بما جرى، لذلك نزل عن السقيفة، واتجه إلى الغرفة التي يستقبل والده فيها الضيوف، فتح الراديو، قلب المحطات، توقف عند أغنية محمد عبد الوهاب:

كل اللي حَبّ اتنصفْ

وأنا وحدي اللي شكيتْ

هز رأسه، وحاول أن يغني معه، ولكنه لم يفهم شيئاً، وصار يقول (حُبَّكْ نَصَفْ حُبَّكْ نَصَفْ).. وترك الراديو مشتعلاً، وخرج.. مشى إلى المطبخ، حيث تضع والدته الطعام في النملية، التهمَ منه ما لا يحسب الحاسب، وخرج، وعندما عبر من أرض الديار أسرعت أم خليل نحوه واستوقفته:

- لوين رايح تقبرني؟

- لعند رفيقي نادر. الأستاذ عبد الله عطانا وظيفة، وقال إنه ما يجوز يحلها كل واحد لحاله. كل تنين أو تلاتة لازم يحلوها مع بعض.

وقبل أن تتمكن من قول أي كلام، تسلق الجدار، وهو يغني (حُبَّكْ نَصَفْ..)، حتى وصل نهاية الجدار، ثم سمعت صوت ارتطامه بالأرض في الزقاق، فتحت الباب، فرأته راكضاً، وخلال ثوان غاب عن الأنظار.

*****

أثناء مسير أبو خليل وخليل وجميل باتجاه دارهم، كان أبو خليل يرسم خطة محكمة لتنفيذ العقوبة:

- خليل بيدخل عَ الدار قبلنا، بيمسك فريد، وبيفتل إيديه ليصيروا ورا ظهره، جميل بيجيب شمبرير البسكليت المبعوج من حوش الكدش، منقصّ الشمبرير قطعتين، بمقص الشحالة، منربط رجليه بنص، وبالنص التاني أنا بضربه.. أشو رأيك خليل؟ مية جلدة بتكفي؟

عندما علم أبو خليل من أم الأولاد أن فريد ذهب إلى دار صديقه نادر استنفر مجدداً. أقسمَ على أنه سيدخل دار أبو نادر دون استئذان، ويشحط فريد من أذنه، ويستمر بشحطه حتى يصل الدار. وصرخ منهياً كلامه:

- بده يجنني فريد في آخر عمري؟

قال خليل: ياب، الله يطول عمرك ويخلي لنا اياك. زَغَّرنا عقلنا مرة، ورحنا على دار الأستاذ علاء، وتأكدنا أن فريد كذاب، ورجع عقلنا لراسنا، معقول نجنّ مرة تانية ونهجم على بيت أبو نادر حتى نتأكد من أنه كذاب؟

قال جميل: خلونا ننام، عندنا فيقة الصبح عَ الشغل. وبالنسبة لفريد لا تخافوا عليه، مثلما نط عَ الزقاق من فوق الحيط وطلع من الدار، بينط وبيدخل من دون ما نحس عليه.

*****

-21-

تبين أن كلام جميل صحيح بنسبة مائة بالمائة.. فقد عاد فريد إلى المنزل، وصعد إلى السطح، وأمسك المزراب الحديدي بيديه ورجليه، ونزل دون أن يصدر عنه أي صوت. وحدها أم خليل التي كانت قلقة عليه طوال الوقت، انتبهت لمجيئه، وعندما تسلل خلسة إلى المطبخ لحقت به، وهمست له:

- لا تخاف تقبرني. هاي أنا. الحمد لله عَ سلامتك.

لم يرد عليها، أمسك حافة السقيفة بيديه، وبقفزة واحدة أصبح في الأعلى. قالت له: استنى دقيقة. راح جيب لك مخدة وبطانية.

وبعدما انتهت من ترتيب وضع مريح له، وناولته رغيفين مدهونين بالدبيركة والزيت، ذهبت إلى غرفة النوم.

كان أبو خليل مسنداً ظهره إلى الحائط، ممدداً ساقيه تحت اللحاف. سألته:

- أيش بك مرعي؟ ليش ما نمت؟

- قلقان على فريد. ولِكْ يا سامية، صحيح أنه هالصبي جسمه بقد البغل، لكن لا تنسي أنه بَعْدُه ولد.

وزفر بحرقة، وقال:

- جميل عم يشكك بكل شي قاله فريد؛ وعم يراهن على أنه بصف فريد ما في ولد اسمه نادر! إذا كلام جميل صحيح، معناها هلق عم يتسكع في الزقاقات، ممكن يصادفه رجل سكران، يعتدي عليه، أو يعضه كلب فلتان..

همست أم خليل: اطمئن. فريد صار هون في الدار.

وعندما لاحظت الدهشة على وجهه، شرحت له كيف أن فريد يخرج من الدار ويدخل إليها عشرات المرات كل يوم، دون أن يستعمل الباب.

قال: اسمعي. أنا راح شوفه، وأحكي معه، بلكي أفهم منه ليش عم يكذب علينا، وليش عم يشاغب في المدرسة ويخلي المعلمين والمدير يزعلوا منه.

- لا لا. ما بنصحك تشوفه.

- ليش؟

- لأنه مذنب، إذا سمع صوتك راح يتعربش عَ الحيط ويهرب، وإذا حاصرته بالأسئلة بده يرجع للكذب.. خليه هلق ينام، والصباح رباح.

*****

-22-

ما مضى على دخول التلاميذ إلى صفوفهم سوى قرابة نصف ساعة حتى فوجئ علاء بدخول الأستاذ عبد الله، دون أن يقرع الباب.. كان وجهه مبعثراً كما لو أنه خارج للتو من مشاجرة جماعية. تقدم منه وقال له وهو يرفع إصبعه في وجهه:

- بيرضيك يا أستاذ علاء يتشردوا ولادي وأتبهدل في آخر عمري كرمال ولد مهبول اسمه فريد سبنَّان؟ أنت مو وعدتني البارحة أنك تلاقي لنا حل لمشكلته؟ أشو عملت حضرتك؟ ولا شي، ليكه، موجود في الصف، جاييني بالجاروخ الديري.. و...

كان علاء، من خلال معرفته الوثيقة بطبيعة الأستاذ عبد الله المُسالمة، متأكداً أن غضبه من فريد ذو طابع آني، فمن عادته أن ينسى إساءات التلاميذ، وينظر إليهم كما لو أنهم أبناؤه. طلب منه أن يجلس. وأوصى على كأسين من الشاي، ثم قال:

- يا أستاذ عبد الله، أنا بعرف أنه فريد حمار، ومئذي، ولو الأمر بيخصه وحده، كنت فصلتُه من المدرسة من دون تردد، لكنْ أبوه، العم أبو خليل، رجَّال طيب. أنت بتعرفه. صح؟ الرجل فلاح، بيروح على شغله "قبل مَسكة الأبريق"، وما بيرجع عَ الدار قبل المغرب. ولو إنك تعرف أشو صار كنت بتهدى وبتروق. (وهنا ضبط علاء نفسه متلبساً بتبني طريقة فريد في صنع الأكاذيب) أبو خليل داق المر وهو عم يدور على خف يناسب مقاس أقدام فريد، المشكلة أن القياس الولّادي زغير عليه، والرجَّالي كبير، منشان هيك راح عَ سلقين، ومن هناك عَ حارم،

وبالغلط دخل الأراضي التركية، ورجال الجندرمة مسكوه، وحققوا معه، ولما قال لهم إنه عم يدور على خفّ رياضة لابنه، ظنوا أنه مجنون، فأخذوه لعند الشريط اللي بين تركيا وسورية، ونزّلوه تحت الشريط، ودفشوه باتجاه الحدود السورية.. على هذا الأساس أنا سمحت لفريد أن يداوم في المدرسة بالجاروخ..

كان عبد الله قد راق قليلاً. قال:

- والله أنك خليتني أزعل عَ أبو خليل. ولكن، يا أستاذ علاء، أنا شايف أن رواية قياس الخف مانا صحيحة. في مقاس اسمه "المُحَيَّر"، وفي أحذية تفصيل.. الأهل بياخدوا الولد على دكان الكندرجي، بياخد قياساته، وبيفصل له كندرة، وصلى الله وبارك.

- لو كنا عم نحكي عن كندرة من الجلد، كان كلامك صحيح 100%، لكن نحن طلبنا من فريد يشتري بوط رياضة، والبواط كلها شغل مَعَامل، يعني سَكب، ما بتتفصل تفصيل.

- يا سيدي بلا بوط الرياضة، خليه ينقبرْ ويلبسْ صباط عادي.. بصراحة أستاذ علاء؟ إذا بقي فريد يشرفني في الصف بالجاروخ الديري أنا راح ينخرب بيتي. يا خيو بترجاك افهمني، أنا عمري حسب الهوية 55 سنة، ولكن عمري، في الحقيقة، 61 سنة، لأن أبوي ما سجلني في النفوس في نفس السنة اللي انولدت فيها، وهلق باقي لي خمس سنين، بحسب عمري اللي في الهوية، وبنحال ع المعاش، وجسمي بلش يتعب، وأنت بتعرف أن مهنة التعليم كانت صعبة قبلما يشرف فريد ع مدرستنا المسكينة، بقى شلون بعدما شرفها فريد؟

عادت علائم الأسى للظهور على وجه عبد الله وهو يقول:

- عندي خمس ولاد، واحد منهم عنده تَوَحُّد، محتاج رعاية مدى الحياة، وبنت جمالها تحت الوسط، صارت في التلاتين وما حدا تقدم لها، يعني أنا لازم أنفق عليها وعلى أخوها مدى الحياة.. وإذا بستقيل قبل سن المعاش ينكشف حالي، و..

- كلامك غريب جداً يا أستاذ عبد الله. أيش اللي خلاك تفكر بالاستقالة؟

- ما قلت لك؟ جاروخ فريد سبنَّان!

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه علاء، وكاد أن ينفلت بالضحك، ولكن عبد الله لم يترك له مجالاً، إذ عاجله بالقول:

- حضرتك بتداوم هون في الإدارة، وما بتعرف شي عن الجاروخ. لما بيوصل فريد الصبح، بيكون عالق فيه رطل طين، وهو بصراحة مو طين صافي، مخلوط بزبل البقر، وسَقَط الجَاج، وفشْك الحمير والكدش، ووالله العظيم، أنا شفت آذن المدرسة "عُمير"، بعيني عم ينتف شعره عند باب المدرسة البراني، بعدما فشل في إجبار فريد على تنضيف جاروخه بره، وحتى ما تتفاجأ، بدي خبرك أنه عمير راح على مديرية التربية، وقدم طلب نقل عَ مدرسة "المسطومة"، لنفس السبب. بتحب أحكي لك كيف بيصطاد فريد العصافير بالجاروخ خلال الفرصة؟

وقبل أن يحكي له عن عملية صيد العصافير، دخل الآذن عمير وهو يصطحب ولداً من الصف الثالث ينزف الدم من جبينه. سأله علاء:

- خير؟ أشو في؟

- سلامتك أستاذ. فريد سبنَّان ضربه بفردة جاروخه.

* * *

تمكنَ علاء، بأسلوبه الذي يختلط فيه المزاح بالجد، من إقناع معلم الصف الأول الأستاذ عبد الله، بالعدول عن فكرة الاستقالة، ووعده بإزالة الأسباب. وعندما لاحظ أنه نجح في مسعاه، قال له:

- الله يطول لنا عمرك يا أستاذ عبد الله، صدقني ما بيليق فيك تستقيل بسبب جاروخ! أنت تعرف شقد أهل بلدنا بيحبوا الأنكلة والمسخرة. إذا عرفوا هالشي، أشو بدهم يقولوا عنك؟

توقف قليلاً، وتابع:

- بتعرف يا أستاذ عبد الله؟ فكرتك عن تفصيل الصباط عجبتني. يا سيدي، أنا مستعد أصرف عشرين ليرة سورية من ميزانية "التعاون والنشاط"، وآخد فريد عَ سوق القندرجية، وأفصّل له صباط على مقاس رجليه.. وحتى ما يصدُر عن الصباط صوت يزعجك في الصف، راح أخلي الكندرجي يركّبْ لُه ضبان "سختيان[13]" من تحت. وراح أنفذ هالفكرة حالاً.

وأخرج دفتر النشاط الذي وُضعت الأوراق النقدية في داخله. أخذ منه قطعتين من فئة عشر ليرات. وسجل سطرين في حقل الشروحات. ووقف، وقال لعبد الله:

- عن إذنك.

*****

13- السختيان نوع من الجلد السميك الخشن الذي لا يصدر عنه صوت أثناء المشي.

-23-

في الطريق إلى سوق الكندرجية، كانت تدور في رأس علاء فكرة مفادها أن مدرسة عمر بن الخطاب عمرُها الآن عشر سنوات، ومن الممكن أن تستمر في الخدمة مئة سنة أخرى، ولكن، يستحيل أن يمر بها تلميذ مثل فريد! وفريد، بدوره، كان يسترق النظر إلى علاء، ويفكر في أفضل طريقة لإرضائه، وإسعاده، وإبقائه صامداً في وجه الشكاوى التي تأتيه بحقه من معلم الصف، والآذن، وبعض التلاميذ.

في سوق الكندرجية، عندما عثر علاء على كندرة تناسب قدمي فريد قال له:

- ولاك كذاب، كيف قلت لي إن أبوك ما لقى صباط على قياس رجليك؟ من دون يمين هذا الصباط بيطلع قَدّ رأسك.

- بصراحة أستاذ؟ أنا كذبت عليك، لأني ما بحب لبس الصبابيط. الجاروج أرْيَح. بثانية بتلبسه، وبثانية بتشلحه. ولكن بسيطة، كرمى لك إنته راح ألبسه..

اشترى علاء الصباط، بالإضافة إلى جوربين قطنيين، وقال له:

- البس الجورب بالأول، وبعدها بتلبسْ الصباط.

تحولت عملية ارتداء الجوربين إلى مشهد كوميدي قَلَّ نظيرُه في الحياة الواقعية، فحينما أدخل فريد فردة الجورب اليمنى في قدمه، علق ظفرُ إبهامه بخيطٍ أخذَ يَتَنَسَّلُ من مكانه ويستطيل، ويحول دون دخول القدم في تجويف الجورب، وبسرعة فائقة انحنى بجسده، حتى

أوصل فمه إلى الخيط، وعض عليه وقطعه، ولكيلا تعلق الفردة الثانية بخيط آخر، أحاط إبهامَ قدمه اليسرى بأصابع يده، ودحشها في الفردة، ولما انتهت العملية ابتسم، ولبس الصباط، وركض إلى خارج الدكان، حيث توجد كومة من الحجارة، رفع بعضها، وطمر الجاروخ، ووضع فوقه حجراً ناتئاً، وقال لعلاء:

- حطيت له علامة، حتى إذا رجعت شي يوم لآخده ما أتوه عنه.

*****

-24-

عندما عاد علاء وفريد إلى المدرسة، كان قد أصبح بينهما تَنَاغُمٌ غريب.. ففي حين دخل علاء إلى غرفة الإدارة، ركض فريد إلى الصف الأول، نقر الباب بكل تهذيب ودخل، وقال للأستاذ عبد الله:

- تفضل أستاذ. المدير عم يستنانا أنت وأنت في الإدارة.

*****

بمجرد ما دخل عبد الله وفريد غرفة الإدارة، أشار علاء بإصبعه إلى قدمي فريد، وقال:

- انبسط يا أستاذ عبد الله. اشترينا لتلميذنا المهذب فريد صباط جديد، من الوكالة. هلق صار فينا نقول لعملية الطَشّ بالجاروخ عَ الأرض: وداعاً.

قال فريد وهو يتخلى عن إحدى فردتي الصباط، ويقربها من وجه عبد الله: كما إلُه ضَبَان، وطبقة سْفنج. شوف أستاذ.

أشاح عبد الله ببصره عن قفا الصباط، ونظر إلى علاء، ثم قال لفريد:

- أنت روح عَ الصف. خود شنتايتك وانصرف، ولا ترجع عَ المدرسة لبكرة الصبح.

وبعدما خرج فريد، مشى إلى الباب، أغلقه بإحكام، وقال لعلاء:

- أنا مستغرب أنك حصرت مشكلتنا مع فريد بـ الطَشّ بالجاروخ، وغضيت النظر عن فصوله التانية.

- بتقصد الفصول اللي حكيت لي عنها؟

- هي، وغيرها. يا أستاذ علاء، أنا بخاف تعتبرني متحامل على هالولد، منشان هيك بدي تتفضل معي عَ الصف، وتسمع من التلاميذ القصة على جلّيتها.

- لا لا.. ما في داعي.

- لأ، في مية داعي. والله العظيم إذا ما بتجي معي ع الصف لأزعل منك.

*****

-25-

قال التلميذ مجدي إن الأستاذ عبد الله أجلسه، في بداية السنة الدراسية، بجوار فريد. وأضاف أن فريد، حجمُه كبير، عندما يرخي بدنه عليه أثناء الدرس، يوشك على الاختناق، ومن عادته أن يشلح الجاروخ، ويضع قدميه الحافيتين على بلاط الأرض، ويُبقي نظرَه على المعلم، فإذا التفتَ المعلم يرمي الجاروخ على الأرض، متقصداً أن تأتي إحدى الفردتين على قدميه، فيطيش صوابه من الألم..

وأضاف أنه أخبر والده بما يجري معه في الصف، بسبب جيرة فريد، فغضب، وذهب إلى الأستاذ عبد الله في داره، وطلب منه أن يغير مكانه في الصف، ففعل، فارتاح كثيراً لأنه صار بعيداً عن فريد.

تدخل الأستاذ عبد الله قائلاً:

- المشكلة ما هي مشكلة مجدي وحدُه يا أستاذ علاء. بالعادة نحن منحط كل تلات تلاميذ في مقعد، ولكن شوف، هلق كل أربع تلاميذ محشورين في مقعد واحد، وفريد قاعد وحده في هادا المقعد.

قال التلميذ عبد الحميد:

- يا أستاذ؛ فريد مشاغب، وغدار، أنا كنت، في البداية، قاعد جنبه.. ومرة، كان الأستاذ داير لنا ضهره، وعم يكتب ملخص للدرس عَ اللوح، قام فريد صار يقلد صوت دبانة، وصار يلحقها ببصره في كل الاتجاهات، وأشر لي أنها وقفت على خده، مع أنه ما كان في دبانة ولا شي، ومع هيك رفع كفه لفوق، وضرب خده بالكف، وطلع صوت، أنا ضحكت، قام مسكني من إيدي وقال لي: هس. الدبانة وقفت على

خدك. دير بالك تتحرك حتى ما تنتبه وتطير، وضربني كف صارت على أثره أدني تصفّر، وعيني اليسار زغللت، وما عدت شوف فيا، ولما انتبه الأستاذ عبد الله والتفت علينا، فريد مسك حاله من تحت، وقال له:

- أستاذ بدي أشخّ.

وطلع من الصف.

سأله علاء: وأيش صار بعدين؟

- أخدني أبويي على عيادة الدكتور عادل، عاينني، وقال لأبويي الله ستر أنه ما انبعجت طبلة إدنه، ووصف لي قطرة، استعملتها على تلات أيام حتى طبت.

وقال التلميذ فاضل: فريد يا أستاذ جاب معه عَ الصف سنبلة قمح، غافلني وحط لي ياها في رقبتي، تحت قميصي، مديت إيدي لطالعها، قامت صارت تمشي لتحت، وما قدرت طالعها حتى شلحت القميص الداخلي، وكان الجو بارد، وأنا صرت أرجف، وفريد فتح شنتايته وكان فيها قنينة مَي، رشقها عليّ، فكش بدني كله، وتاني يوم ما جيت عَ المدرسة، لأني مرضت، وإجا الطبيب لعندنا ع البيت، وقال لأبويي: ابنك صاير معه تيفوئيد.

أيقن الأستاذ علاء بأن الأستاذ عبد الله ينوي محاصرته بالشواهد والأدلة، لذلك مد يده باتجاه التلاميذ، وقال لهم:

- طيب يا أبنائي. أشكركم على صدقكم وصراحتكم.

وخرج.

*****

من يوم أن بدأتْ حكايةُ فريد مع المدرسة، وعلاء ينقل لوالدته، وزوجته، وشقيقته علياء، وقائعَ ما يجري معه من فصول، بطريقته الهزلية، متقصداً إدخال بعض السرور إلى قلب علياء التي تتنازعها الأفكار بين العودة إلى زوجها الذي كان يترقق لها أثناء فترة الخطوبة، ويبني لها قصوراً من الأحلام، بأنه سيعيش معها كما يعيش الصديق مع صديقته، ويساعدها في شغل المنزل، وإذا وجدها متأخرة في النوم صباحاً سيغلي لها القهوة، ويأتيها بفنجانها إلى السرير.. وبعد ما لا يزيد عن شهرين من ليلة الدخلة، انقلب على عقبه، وصار يستهزئ بها إذا حكت، ويلمح إلى أن خروجها دون حجاب يعتبر استفزازاً للتقاليد الاجتماعية التي يجب علينا جميعاً مراعاتها، ويبدي ملاحظات على نسبة الملح في الطعام، وعلى لون الشاي بعد سكبه في الكأس أثناء العشاء، ويلمح لها بأنها تربية أرملة، والأرملة – على قول المثل – (رَبّتْ تورْ ما فَلَحْ، وربتْ كلب ما نَبَحْ)، وأن أخاها علاء، هذا الذي يمشي ويطنّب مثل العيد الكبير، لولا انتسابُه لحزب البعث، وتمسيحه الجوخ للمسؤولين، لما صار مديراً لهذه المدرسة التعبانة، الموجودة في الحارة الشمالية التي يأتي ربع تلاميذها إلى الدوام حفاة، أو بشحاطات زَنُّوبا ذات الإصبع الواحدة.. وذات مرة، لم يكتف بإهانتها، بل إنه صار يقرب كاس الشاي من مرمى عينيه، ثم قال لها:

- عاملتيلي الشاي صفرا وفاترة متل شخاخة القَيّمة[14].

وانفلت بالضحك وقال لها: يعني متل شخاخة والدتك.

وفي ذلك اليوم الكئيب، كان زوجها عائداً من دوامه، وكانت قد

14- تشبيه شعبي متداول كثيراً في مناطق إدلب، يستخدم خصوصاً مع الشاي عندما يكون لونها أصفر.

جهزت سفرة الطعام، وبعدما تناول كل منهما بضع لقيمات، قالت له:

- اليوم مرت عليّ أختك شهيرة..

فلم يستمع إلى تتمة الحديث، أمسك حافة الصينية التي صففت عليها أطباق الطعام، وقلبها بنترة واحدة على قفاها، فسُفحت محتويات الأطباق على الأرض، وهو يقول:

- أنا مو قايل لك إنه أمي وأختي خط أحمر، وما بتجيبي سيرتُن ع لسانك؟

فامتلأت عيناها بدموع صامتة، وذهبت إلى غرفة النوم، رتبت بعض أشيائها الشخصية في حقيبتها الصغيرة، وخرجت لا تلوي على شيء.. ومن يومها لم يتوقف عن إرسال المراسيل إليها، لكي ترجع، وهي لا ترد، وتقول لمن يكلمها في الأمر: اتركني أفكر.

قال علاء: أيش قصتك عليا؟ من زمان، كنت أحب أحكي لك إنتي بالذات عن الشغلات اللي بتضحّك، لأنه ما في حدا متلك بيفهم النكتة وبيضحك لها.. هلق كلما حكيت لك نكتة، عم تحسسيني وكأنها بايخة.

قالت: بالعكس علاء، أنت بتحكي النكتة بطريقة رائعة. وخاصة لما بتحكي لي عن هادا الشاب فريد. خاي أنت متأكد أنه مجنون؟

فوجئ علاء بالسؤال، لأنه كان يستفسر عن وضعها، وإذا بها تحول الحديث في اتجاه فريد. قال:

- لأ، بيتهيأ لي إنه مو مجنون. لكن شخصيته كتير غريبة.

- برأيك هو بيحب الأذى، وَلّا بيئذي الآخرين من دون ما يقصد، ولا بيحاول يئذي الناس لأنهم ما بيتعاملوا معه بلطف؟

- آ؟ والله يا عليا أنا ما فكرت بهاي الأسئلة. ولكن، بتصدقي إذا بقلك؟ هالولد ما بيغيب عن بالي لحظة. على كل حال خلينا نستنى ونشوف.

* * * * *

-27-

يمكننا القول، الآن، إن رغبة علاء بالاحتفاظ بفريد، باعتباره مصدراً ثراً للكوميديا، قد أُحبطت. لم يعد الأمر مقتصراً على المعلم عبد الله، والآذن عمير، والتلاميذ الذين كانوا يعانون من حقارة فريد، فقد همس واحد من معارفه التقى به عند باب حمام المحمودية، أن مجموعة من معلمي المدرسة يخططون لمقابلة مدير التربية والتعليم، وإبلاغه بأن في المدرسة ولداً مجنوناً، متجاوز السن القانوني للقبول في المدارس، يؤذي التلاميذ خلال الفرص التي تفصل بين الدروس، ومع ذلك يتستر عليه المدير، ولا يوافق على فصله.. وكان قد وصله، من مصدر آخر، أن "أبو عبد الحميد الفتلة"، اشتكى للرفيق "نبيه" أمين الفرع، بأن فريد ضرب ابنه بالكف، والله ستر أن طبلة أُذُن الولد لم تنبعج، ووعده الرفيق نبيه بأن يستدعي الرفيق علاء إلى مكتبه، ويطالبه بفصل فريد.

عندما وصل البيت أشارت له والدته إلى أن أخته علياء جاءت من دوامها ووجهها لا يفسر، ودخلت غرفتها وأقفلت على نفسها الباب من الداخل.

سألها: أيش القصة؟

قالت: ما بعرف. بظن أنها أنهت الموضوع مع زوجها.

تقدم علاء من باب غرفة عليا، وهَمَّ بطرقه، ولكن أم علاء نصحته بترك الموضوع ريثما يبرد قليلاً، وأن بإمكانه مناقشتها بالأمر خلال السهرة. وأخبرته، كذلك، أن جميل سبنَّان قد حضر، وسأل عنه، وترك له خبراً بأن العم أبو خليل يريد مقابلته بأسرع وقت ممكن، فاستغرب ذلك، لأن أبو خليل وجميل يكونان نهاراً في الفلاحة، فماذا الذي حصل؟ وعلى الفور ذهب إلى منزل أبو خليل وطرق الباب.

* * * * *

-28-

قال أبو خليل:

- الإنسان اللي بيعير عقله للناس، ما بيحق له يزعل إذا الناس خربوا له عقله، وعملوه مسخرة للي بيسوى واللي ما بيسوى. أنا كنت عم فَكّر صح لما قررت إقفل باب داري على ابني المجنون، ولكن هاي خالتك أم خليل لعبت بعقلي، وخلت قلبي يحن، وهوي هادا الجحش (وأشار إلى فريد) قعد يدبل لي بعينيه الخضر، ويحكي لي بالنحوي، ويقلي: يا بابا ويا بابا.. وأنت، يا أستاذ علاء، أشو بدي أقلك؟ قسماً بالله كنت مفكرك عاقل، منشان هيك رحت لعندك وشاورتك، بس بوقتا ما بعرف أشو صار معك. بَرَك هادا السعدان وصار يقلك نعم أستاذ، وكَلَّا أستاذ، وأنت انغشيت فيه، وقلت لي إنه متل النقطة في المصحف، بالله عليك شوف بعينك، هاي هيئة ولد عاقل، ولا هيئة واحد سرسري جبقون؟.

وفجأة؛ مط أبو خليل جسمه إلى الأمام، وتناول فردة الجاروخ التي كان فريد قد شلحها في أرض الغرفة، حملها وكَالَهُ بها، وفريد أبعد رأسه من مسارها، فنزلت على مرآة "السكرتون"، فكسرتها، وسقط حطامها على الأرض.

ساد صمت ثقيل. وقفت أم خليل بعده، وسحبت فريد من يده، وأوصلته إلى الباب، ودفعته إلى الخارج، وعادت لتجمع حطام المرآة دون أن تعلق على الأمر بأي كلام، بينما قال علاء:

- عمي أبو خليل. ممكن تهدا شوي وتخبرني ليش معصّب؟

تمتم أبو خليل مردداً عبارة "أستغفر الله العظيم"، وقال:

- لا تؤاخذني يا أستاذ علاء. والله العظيم أنت أغلى عَلَيّ من خليل وجميل. لكن هادا الواطي فريد سم بدني. تصور، تركت شغلي في البرية، وفكيت العدة عن الكدش، وجيت عَ الدار "كَرْفَتة"[15]، من تحت راسُه.

- يا ساتر. ليش أشو صار؟

- رحنا الصبح ع الفلاحة متل العادة. فلحنا أول تيارة[16]، وقبلما نجيب تاني تيارة، شَرَّفْ أبو مراد طَبّينة. سلام عليكم. وعليكم السلام. وانفلت علي: يا أبو خليل نحن ولاد بلد، ونحن ولاد حارة، وربنا ما قال بأن يتضرر ناس ويستفيد ناس. بيصير يا أبو خليل، إبنك اللي ما في راسُه غرام عقل يبقى في المدرسة، وابني مراد الفهيم، العاقل، المربى، يطفُش؟ ما لك بطول السيرة، يا أستاذ علاء، بعد أخد وعَطَا، فهمت منه أن ابنه مراد رجع من المدرسة وهو خَرْيان في تيابُه، وجبينه ومنخاره وتمُّه حُمْر متل الشوندر.

- هادا كمان من ضحايا فريد؟

- نعم سيدي. تصور، فريد عامل لمراد طَبّينة فحص، ماسكُه من ياقته بإيده الأيسرية، وشالف فردة الجاروخ في الهوا، ومتلقيها بيده الأيمنية، وضاربُه فيها بشكل عمودي بين عينيه ومنخاره وفمه، وعم يقول له: في شغلة وسخة أنت يمكن تعملها، هلق عم أضربك حتى ما تعملها! أبو مراد، شهادة لله، بيحبني، وبيراعي خاطري، منشان هيك سكت عن السيرة، وقرر ما يعاتبني، لكن الصبح فَيَّقْ ابنه، منشان

15- كرفتة كلمة محلية تعني: اعتباطاً، وبسرعة، ودون تفكير.

16- يطلق الفلاحون على حراثة الأرض من أول الحقل إلى نهايته اسم تيارة.

يبعتُه المدرسة، وفاحت الريحة. حلف لي أبو مراد يمين أن ابنه كلما حدا قال له روح عَ المدرسة عم يَخْرى في تيابه.

أراد علاء أن يعلق على الموضوع، فرفع أبو خليل يده، وقال:

- عَ كل حال، يا أستاذ علاء، أنا بتشكرك لأنك درت بالك على إبني، وتحملت قلة ذوقه وحيونته، لكن هلق خلصنا. فريد صار برات المدرسة. أقسم بالله العظيم ما بيرجع إلا عَ جثتي!

* * * * *

-29-

أطلق أحد الظرفاء على آخر يوم أمضاه فريد في مدرسة عمر بن الخطاب اسم: اليوم العالمي للتصوير الحديث!.

تأكد لـ " فريد" أن رغبة أبيه بإلغاء تسجيله في المدرسة قد توافقت مع رغبة الأستاذ علاء بفصله، وأصبح واثقاً من أن مستقبله التعليمي قد دخل في طريق مسدود، فـ "كمد على فساد"، وقرر أن يُجري للمدرسة حفلة وداع من نوع خاص.

خرج من الدار، خلال وجود الأستاذ علاء في زيارتهم، وتوارى، ولم يعد إلى الدار حتى نام الجميع، وتسلق إلى السقيفة، ونام عليها كالعادة.. وفي الصباح، عندما تأكد من مغادرة أبيه وشقيقيه الدارَ إلى الفلاحة، لبس الجاروخ الديري الذي كان قد استرده من حيث طمره تحت الحجارة في سوق الكندرجية، وفتح الحقيبة المدرسية التنكية، أفرغها من الدفاتر والكتب والأقلام، ووضع فيها الصباط الذي اشتراه له الأستاذ علاء، ومشى إلى المدرسة وهو يطش بالجاروخ ويلوّح بالحقيبة.

كان الآذن عمير واقفاً عند الباب وهو في أوج السعادة. رأى فريد قادماً فوقف له بالعرض، وقال بِتَشَفٍّ:

- نعم؟ خير إن شاء الله يا سيد فريد؟
- بدي أدخل.
- لا عمي لا. روح خَيّط بغير هالمسلّة.

- ليش بقى؟

- لأن قرار فصلك طلع من شوي. سيد فريد نصيحة مني إلك، إنسى هاي المدرسة. إذا شفت نفسك في المنام فايت عليها لا تصدق. يا الله، انقلع. (وصرخ) انقلع.

- طيب يا عمير. بسيطة.

ومشى بهدوء، وثقة بالنفس، حتى وصل إلى آخر سور المدرسة. وجد على الأرض قصاصة قماش طويلة، ربط بها الحقيبة، وعلقها بكتفيه، وتسلق السور، وخلال دقيقة واحدة كان في باحة المدرسة. اتجه إلى الإدارة. وقف أمام الأستاذ علاء، بكل احترام، وفتح الحقيبة، وأخرج منها الصباط، وقال:

- أستاذ أنا بتشكرك. هادا الصباط أنت اشتريت لي ياه، وأنا هلق مفصول ما بيلزمني، بعدين أنا عندي جاروخ، ولله الحمد، ربنا سبحانه وتعالى طامرني بفضله.

- طيب يا فريد. أنا بحيي أمانتك. بتريد شي تاني؟

- نعم أستاذ. بدي تسمح لي أروح عَ الباحة أودع رفقاتي؟

- سمحت لك. روح الله معك.

خرج فريد من غرفة المدير بكل هدوء، بينما كان وجه علاء يطفح بالبشر.

*****

تلاميذ المدرسة ما يزالون في الصفوف. مشى فريد إلى آخر الباحة، كان ثمة حجر كبير، وبجانبه حجر صغير. وضع الحقيبة التنكية على الحجر الكبير، وصار يخبطها بالحجر الصغير، حتى أصبحت مثل آلة حادة. رن جرس الفرصة، وخرج التلاميذ إلى الباحة، دخل فريد بينهم،

وصار يرقص فتجمعوا حواله، وأخذوا يصفقون له، وانطلق بعض تلاميذ الصف الخامس يغنون:

قام الدب لَيرقصْ

قتل شي سبعة أنفسْ

وصارت حفلة صغيرة ارتجالية، رقص فيها فريد حتى سال العرق من كل مسامات جسمه. وعندما تعب من الرقص، توقف وقال:

- تعالوا بقى، قربوا لعندي، خلونا نأخذ صورة تذكارية!

سأله أحد التلاميذ: معك كاميرا؟

قال فريد: طبعاً معلوم. معي كاميرا. قرب لعندي حتى أصورك. يا الله، سَوِّي ياقة قميصك. ابتسم.

وصار فريد يوقف واحداً من التلاميذ، بوضعية الجلوس عند المصور، ويطلب منه أن يبتسم، ويحبس نَفَسَه، ويعد (واحد اثنان ثلاثة) ويضربه على رأسه بالحقيبة التنكية المطعوجة، فيسبب له جرحاً يسيل منه دمُه، ويقول له:

- صَوَّرْتك. بكرة بحَمِّضْ الصور وبسلمك صورك!

وخلال خمس دقائق كان قد أنجز مجموعة صور (إجرامية) لتلاميذ أصيبوا بجروح، وراحوا يبكون..

حدثت في المدرسة فوضى، ظهر على إثرها الأستاذ عبد الله قادماً من طرف الصف الأول، ليستطلع الخبر، فاستقبله فريد ببشاشة، وقال له:

- أهلين أستاذ، تعال أصورك!

فهرب عبد الله باتجاه الإدارة، ولعل غريزة الدفاع عن النفس قد دفعت مجموعة من تلاميذ الصفوف العليا إلى تشكيل قوة صغيرة، هجموا على فريد، وألقوه أرضاً، وأخذوا منه أداة الجريمة (الكاميرا)،

ودفعوه بأيديهم وأرجلهم حتى أوصلوه إلى الباب الخارجي للمدرسة، وطردوه خارجها، وسط دهشة الآذن عمير الذي فوجئ بوجود فريد داخل المدرسة بعدما منعه من الدخول.

علم المدير، الأستاذ علاء، بما جرى، فخاف على التلاميذ الذين جُرحت وجوههم، وأرسلهم إلى المستوصف القريب من المدرسة، حيث ضُمدت جروحهم..

عقد علاء اجتماعاً طارئاً لمجلس المعلمين، تباحثوا فيه بضرورة حماية أسوار المدرسة، وزراعة أسلاك شائكة فيها، لمنع نزول هذا النوع من الأولاد المشاغبين.. وبعد قليل بدأ الجو في الاجتماع يميل نحو المرح والتنكيت، إذ رفع الأستاذ ظافر، معلم الصف الرابع يده، طالباً الإذن بالكلام، وحينما أعطي الإذن قدم اقتراحه بأن تُشَكَّل لجنة من معلمي المدرسة، مهمتها زيارة السيد مرعي سبنَّان، والدِ الطفل المعجزة فريد، وتهنئته من القلب بـ نبوغ ابنه في مجال التصوير الضوئي، وتقديم النصح له بأن يفتح له محل تصوير في البلد، شريطة أن يكون محل التصوير بجوار المستشفى، وأن ترابط سيارةُ إسعاف مجهزة بكل شيء أمام محل التصوير!

*****

-30-

استغرب علاء الاهتمام الزائد الذي أصبحت شقيقته علياء تبديه بموضوع فصل فريد من المدرسة. قالت له، ما معناه، إن المدارس عندنا تلجأ إلى أسهل الحلول في معالجة المشاكل التي تعترضها، فحين تجد الإدارة مشكلة نفسية عند أحد التلاميذ، تفصله، وترتاح من همه! وذكرت له أنها، حينما كانت في دار المعلمين، طلب منهم الأستاذ نظمي تقديم بحث يرجعون فيه إلى مراجع من خارج المقرر، فذهبت إلى المركز الثقافي، وعثرت على كتاب لمؤلف أجنبي (نسيتْ اسمه) يحكي بالتفصيل عن معالجة التلاميذ، أمثال فريد سبنَّان، في مدارس أوروبا، جاء فيه أنهم يخصصون للولد الذي يعاني من اضطرابات نفسية، أو فرط حركة ونشاط، مرشداً نفسياً، ويفتحون له إضبارة يضعون فيها ما يستجد في حالته، أولاً بأول، ويذكرون أساليب العلاج التي طبقت عليه، ويضعونه تحت المراقبة لمعرفة مدى استفادته منها، وعندما يخفقون في إصلاحه، ينقلونه إلى مدرسة أخرى يديرها خبراء نفسيون.

لم يتمالك علاء نفسه، انفلت بالضحك، ما أزعج علياء، وجعلها تقف وتتجه نحو الباب، وتقول:

- معقولة كلامي ضحكك علاء؟ أنا عم بحكي جد.

قال لها، وهو يحاول السيطرة على نفسه لئلا يضحك مجدداً:

- وأنا آخد الموضوع جد، بس يا ترى في واحد بين الطلاب اللي حكيتي عنهم في أوروبا، بيجي عَ المدرسة بجاروخ ديري، وشنتيان مشقوق من تحت، وبيكذب خمس كذبات في الدقيقة، وبيصور زملاؤه بشنتاية تنك؟

عندما وجدت أم علاء الموضوع دخل في خانة التنكيت، قالت:

- الشنتيان مشقوق من تحت؟ أكيد "العدة" تبعُه عم تلعب في الهوا.

اضطرت علياء، لأن تبتسم. وقالت له:

- إذا ممكن علاء، أنت لازم توقف جنبه. أنا بظن أن هالشاب طبيعي، بس اللي حواليه ما عم يفهموه.

قالت أم علاء: بدك الحق عليا؟ أنا شايفة أن علاء هو الوحيد الواقف معه. يعني ما في ضرورة توصيه فيه.

رد علاء بمنتهى الجد: كنت واقف جنبه. بصراحة؟ موقفي منه تغير.

*****

-31-

استبشر أبو خليل بمجيء علاء في هذا الوقت، فالحيرةُ استولت عليه، وجعلته يرسل بصره إلى الأرض، متغافلاً عن نداءات أم خليل التي كانت تطالبه بأن يهدأ، ويروق..

- يعلم الله يا أستاذ علاء أنك عندي بسعر خليل وجميل.. أبوس يدك، شُورْ علي، أشو بعمل بهالبَلْوة فريد؟

قال علاء متصنعاً أقصى حالات الجد:

- من يوم يومها إدلب، يا عمي أبو خليل، مقبرة للمواهب. إذا نبغ فيها ولد بشي مجال، بيبلشوا اللي حواليه يعرقلوه، ويكسروا مقاديفه. ولكن إرادة الإنسان لابد ما تتغلب على كل الظروف. وبما أنك عم تطلب مشورتي، بشوف إنك تفتح لفريد ستوديو تصوير في شارع الجلاء، وهالشي ما راح يكلفك كتير، لأن الشنتاية اللي صَوَّر فيها زملاؤه لساتها موجودة، وأنا واثق أنه خلال شهرين راح يخلي للمصورين الموجودين في البلد يفلسوا، ويكشوا دبّان!

ضحك أبو خليل وولداه رغماً عنهم.

- حلوة. ولكن بجد أستاذ علاء، أشو بتشور علي؟

- الجد؟ لو كنا في دولة متقدمة، كانت الدولة بتتولى أمره، وخلال فترة بيحولوه لإنسان عاقل. حكت لي أختي علياء أنها قرت بحث بيحكي شلون المدرسة في أوروبا بتتولى أمر التلميذ اللي عنده اضطرابات، يعني متل فريد، أو بيحولوه على مراكز الرعاية، أما أهل إدلب، وأنت سيد العارفين، إذا استلموا واحد عاقل بيعملوه مجنون! منشان هيك أنا بقترح عليك تسجن فريد في غرفة ما فيها بشر غيره، وخلوا بينكم وبينه

طاقة، بتناولوه منها الأكل والمَيّ، واعمل له جنب الغرفة مرحاض خاص فيه، حتى ما يتحجج بالشخاخ ويهرب من العقوبة، متلما كان يعمل في المدرسة. لو كان ابنك يا عمي أبو خليل عاقل، كنت بقلك اتركه في الدار وراقبه، ولكن حب الأذى بيجري في عروق فريد مع الدم. أنا حطيت كل إمكانياتي منشان أعقّله، وأخليه يكون ولد طبيعي، لكن مُحَال. أنا بعترف أني فشلت.

- فهمت عليك. والله نعم الرأي.

*****

-32-

عندما تلقى فريد نبأ قرار سجنه في الغرفة المطلة على الزقاق، هلل، وكبر، وأبدى فرحاً جعل أباه وأمه وكلَّ أفراد أسرته يندهشون، لعلمهم أنه لا يوجد في العالم إنسان حر وطليق يفرح بالسجن على هذا النحو المستفز. ولكن لفريد فلسفته الخاصة التي عَرَضها على والده، قائلاً بكل جدية:

- هادا عين العقل ياب، لما بتحطني في الغرفة اللي جنب باب الدار، وبتقفل عليَّ الباب، بترتاح من همي، وما بقى كل شوي بينط لك واحد من الحارة وبيقلك فريد عمل هيك، وفريد عمل كذا.. وبعدما تحبسني في الغرفة، بتحسن تروح أنت وخليل وجميل عَ الفلاحة وبالكُم متطمن، وإذا بدك كلما فَلَحْتْ "تيارة"، بتوقفْ، وبتحط إيدك على دانَك، وبتصيح موال:

حِنّكْ نَصَف، حِنّكْ توم
وأنا وحدي اللي فَسيتْ

ضحك خليل وقال: يخرب ديارك يا فريد. من وين جبت هالموال الضرّيطي؟

وقال جميل مخاطباً والده: لو أنه صاح هالموال قدام الأستاذ علاء كان قال لك ابعته عالإذاعة، وإنه الغِنِي أحسن من التصوير.

* * * * *

-33-

شاعت بين أولاد الحارة، في تلك الأيام، أغنياتٌ كثيرة من تأليف فريد.. إنها ليست من تأليفه بالطبع، ولكنه كان يذهب أحياناً مع أقرانه، قبل أن يسجنه أبوه، إلى حيث يقام عرس، يلتقطون أعقاب سجائر من على الأرض، يشعلونها، ويدخنونها، ويستمعون إلى المطرب، ويصفقون للراقصين، وأحياناً يصفّرون... ويبقون على هذه الحال إلى أن يأتي واحد من أصحاب العرس ويطردهم. وكان يتسلل، في بعض الأوقات السانحة، إلى الغرفة التي يستقبل فيها والده الضيوف، يشغّل الراديو ويقلب المحطات بسرعة، حتى تطلع له أغنية، فيرفع الصوت ويرقص عليها، وخلال ذلك يحفظها على نحو "مفشكل"، منها موال لا يعرف أحد أصله، يؤديه هكذا:

يا أصْوَرَاً لا تخفْ... راعي المخيفةَ وَطَسْ

يا مَن هويتْ الوصالْ... في الليل تلقى الفَسَسْ

وصار الأولاد يتداولون أغانيه، بعدما يُجْرون عليها تحويرات إضافية، وكلما مر أحدهم من الزقاق، ورأى فريد واقفاً أمام الشبك الحديدي، يقول له:

- أهلين أبو مرعي.. جاهز؟

- جاهز لعيونك.

ويقترب منه، ويقرب فريد وجهه من الشَبَك المعدني، ويصيحان موال "يا أصوراً" في البداية، ثم يطلعان بأغنية "حِنَّكْ نَصَفْ حِنَّكْ توم" الراقصة.. ومع الزمن تحولت كلمة "نَصَف" إلى "بَصَل".

*****

-34-

خلال وجود فريد في المدرسة، لم يكن يعرف إلا القليل من أخبار الحارة والبلد. هذا السجن الانفرادي، كان بالنسبة إليه نعمة كبيرة، تتمثل في التماهي الدائم مع حركة البشر، وحياتهم.

الطاقة البدنية والنفسية العالية التي يمتع بها، جعلت شباكه الشبيه بشباك السجن يتحول إلى مركز استقطاب اجتماعي قوي، فكان بعض الناس يقتربون منه، ويمازحونه، ويغنون بصحبته، وبعضهم الآخر يتجنبون الأخذ والرد معه بعدما تأكدوا من أنه مجنون وشرس، وفريق ثالث يقف في مكان بعيد، ويتفرج عليه، وكأنه وحش أسير، أو كائن قادم من خارج التاريخ، والنساء كن يخفنه، إذا عبرنَ الزقاق، تجدهن مسرعات، إحداهن ممسكة بيد الأخرى، يوشكن على الالتصاق بالحائط المقابل لنافذته، إلى أن يتجاوزن منطقته فيتنفسن الصعداء.. وللأمانة، نقول إن فريد لم يكن يحكي مع النساء أي كلام، وأما الرجال، فقلما يمر أحد منهم في الزقاق دون أن يناديه فريد باسمه، أو بلقبه، أو بصفة بارزة فيه:

- أهلين أبو طربوش بشرابة. (ويغني له) شقَّكْ أحمر يا رمان.
- يسعد صباحك أبو بريم المِرْعِزْ..
- مية السلامة يا أبو الجزمة السودا..
- كيفك يا أبو الكزلك المغبّش؟

في يوم من الأيام، تجمع عند شباك فريد عدد لا بأس به من الأولاد الزعران، واحتدمت بينهم أحاديث سرعان ما تحولت إلى لغط لا يُفهم منه شيء، وتطور اللغط إلى غناء، بدأه فريد بموال:

يا راكب الجحشة أبو طيرْ
حط للتبن جلبانْ وشعيرْ
إذا بدك تحط، وإذا بدك تطيرْ
لراس أيري يا أعز الحبابْ

وبعد الموال انطلق الجميع يغنون "حنك بصل حنك توم"، وارتفعت نسبة الطرب في رأس فريد، فصار يرقص، وكان الطقس يومها حاراً، وزاد الرقص في جسمه حرارة، فبدأ يتخلى عن ثيابه، حتى أصبح عارياً تماماً، وفي هذه الأثناء، مر من أمام الشباك العم أبو سمير، المختص بضرب الطوب في رمضان.

كان معروفاً عن أبو سمير أنه رجل خفيف الظل، صاحب نكتة. حانت منه التفاتة إلى الداخل، وشاهد هذا المنظر، فانفلت بالضحك. ووقتها توقف فريد عن الرقص، وقال له:

- أبو طوب أبو طوب. تعال. قرب. بدي أقول لك جوز كلام.
- خير أبو مرعي؟ أيش بتريد؟
- ولا شي. كنت مفكر أضربك كفين متل فراق الوالدين، لكن شوفة عينك، أنا هلق مشغول.

ضحك أبو سمير حتى كاد أن يسقط على الأرض، وقال له:

- ولا يهمك فريد بيك، الدنيا يسر وعسر، هلق حضرتك مشغول، لكن لابد ما تفضى. ووقتها ابعت لي خبر، ليكها دارنا قريبة، وأنا بجي لعندك فوراً، يبقى بتضربني الكفين، وبترجع لشغلك.

ضحك فريد وقال له:

- كلك ذوق يا عمي أبو سمير. ولكن أنت بمقام والدي، الواجب أني أروح أنا لعندك ع الدار وأضربك الكفين، لكن شوفة عينك، الوالد قافل عليّ الباب، والشباك إله شَبَك حديد، إذا بتضربه بطوب الفطار تبع رمضان ما بينقلع.

نظر أبو سمير إلى الأرض باحثاً بعينيه عن شيء ما، عثر على قطعة فحم صغيرة، حملها وناولها لفريد، وقال له:

- عين عمك فريد، امسك هاي الفحمة.. لما بيكون إلك على واحد من رجال الحارة كفين، أو رفسة، أو بزقة في وجهه، سجل عندك عَ الحيط، حتى ما تنسى!

*****

-35-

طبخت السيدة أم خليل للعشاء "برغل بعدس"، ووضعت على السُفرة مستلزماتها من لبن عيران وبصل أخضر.

كان شمل الأسرة ملتماً، الأب، والأم، وخليل، وجميل، والصبايا الأربع.. وكانت تعليمات أبو خليل تقضي بأن يُفتح لفريد الباب عند عودته مع ولديه من الفلاحة، ليتناول الطعام مع الأسرة، ثم تسخّن له والدته ماء ليستحم (إذا لزم الأمر)، وتبدل ثيابه إذا كانت متسخة، ويعاد إلى سجنه، ويقفل عليه الباب.

كان الجميع يتناولون وجبتهم الرئيسية بنهم، بعد نَهَار شغل وتعب، وفجأة سمعوا طرقاً على الباب. نط فريد متل الزنبرك المنفلت، وقال: أنا بفتح.

صاح فيه أبو خليل: أنت ابروك.

ذهب جميل ليفتح، ورجع بعد قليل، وأبلغ والده أن رجال الحارة سيسهرون في مضافة "أحمد آغا الدمخ"، ويريدونه معهم.

قال أبو خليل، كما لو أنه يكلم نفسه:

- الله يعطينا خير هالعزيمة. ما بيعرفوا إني بنام بعد صلاة العشي؟

قال جميل: خبرني الولد اللي دق الباب أن "أبو سمير" موصي عَ تلات صواني كنافة أم النارين، وعازم كل رجال الحارة ع السهرة في المضافة، وأنت منهم. وقال: كتير ضروري إن تحضر.

أبدت أم خليل رغبة في أن يلبي زوجها الدعوة. قالت:

- الدنيا مو بس فلاحة ونوم يا رجّال، روح اسهار، لا تخجّل رفقاتك. ولما بتنعس اعتذر لهم وانصرف.

لم تكن لحية فريد في تلك الآونة قد اكتملت، لأنه ما يزال قريباً من سن البلوغ، ومع ذلك لف أصابع يده اليمنى حول ذقنه، وقال لأبيه:

- إذا كان صاحب العزيمة أبو سمير ضراب الطوب اسماع من هالدقن لا تروح عالسهرة!

أبو خليل وأم خليل والأولاد والبنات، كلهم اندهشوا. وقال أبو خليل غاضباً:

- أيش قلت ولاك؟ وقت أنا بدي أسهر مع رفقاتي لازم آخد موافقتك؟ قوم، انقلع.. خليل.. جميل.. شيلوا هالجحش من قدامي أحسن ما أحطه برقبتي.

وقف خليل وجميل، سحبا فريد باتجاه الغرفة التي كان مسجوناً فيها، وأدخلاه إليها بالقوة، وأقفلا الباب. وأما أبو خليل فقد أكمل عشاءه، وغسل يديه، وارتدى لباس الطلعة والسهرة، وغادر متجهاً إلى السهرة.

* * * * *

-36-

ما إن تأكد فريد من أن أباه غادر الدار، حتى بدأ ينقر على الباب بإلحاح. أم خليل سمعت النقر، فقالت لخليل:

- هذا فريد، أيش به يا ترى؟

تقدم خليل من الباب، فتحه نصف فتحة، وقال لفريد:

- إيش بك ولاك؟ ليش عم تدق ع الباب؟

- خود معك جميل، والحقوا الوالد عَ مضافة أحمد آغا الدمخ. اقعدوا ولا تحكوا شي، إذا أبو سمير ضراب الطوب اعتدى عليه، ابطحه إنته عَ الأرض، وخلي جميل يضربه بفردة الخف على شفاتيره اللي بتشبه براطيم الجمل!

دهش خليل، وقال لفريد:

- ولاك أيش هالحكي؟ لأيش القتل والضرب؟ الدعوة عَ أكلة كنافة.

- طيب يا أبو مرعي. على كيفك. هلق أبو سمير بيضرب أبونا، وأنت وجميل بتغنوا: حِنَّكْ نَصَف حِنَّكْ توم.. وأنا وحدي اللي فَسيت..

على إثر هذا الحوار، ركض خليل وجميل في أزقة الحارة، وكأنهما فقدا عقليهما، وصارا يتبادلان عبارات تَحَدٍّ لـ أبو سمير ضراب الطوب، وأنه إذا سولت له نفسه أن يضع وردة على أبيهما، فسيضربانه، مقابل ذلك، بخف الفلاحة العتيق..

*****

-37-

بعد ذهاب خليل وجميل، تقدم فريد من الشباك المطل على الزقاق، وأمسك بدرفتيه، يريد إغلاقه، وإذا بامرأة قادمة من جهة اليسار في الزقاق، وكانت متجهة نحوه على نحو بدا مقصوداً. تجمدت يداه. المرأة اقتربت. قالت له:

- كيفك فريد؟

لم يرد. بقي ينظر في وجهها الأبيض وشفتيها المصبوغتين بالحمرة. قالت:

- أنا عليا. أختُه للأستاذ علاء الرداد.

سكتت قليلاً وقالت: أمك هون؟

قال: أي، هون.

تقدمت من الباب، أمسكت السقاطة، وهمت بقرعه. لاحظت أن فريد يتابعها ببصره. عادت إلى مقابل الشباك، اقتربت، قالت بلهجة تشبه الهمس:

- لا تقول لأمك إني جيت.

- آ؟ ليش؟

- ما في شي. دير بالك على حالك.

- طيب. بس إإ..

- إشبك فريد؟ بدك تقول شي؟

- آ؟ لأ. أي. قربي شوي..

اقتربت عليا من الشباك. عينا فريد انغرزتا في فتحة الثوب، بين النهدين الأبيضين الرائعين. صار يبلع ريقه بصعوبة، ثم قال:

- ما راح قول لأمي إنك جيتي. بس إنتي..
ابتسمت بعذوبة أسَرَتْه. قالت: أنا أشو فريد؟
- ما بدي شي. بس تبقي عَدّي..

بصعوبة بالغة؛ غادرت عليا المكان، وصارت تتدافع في مشيتها، وتلتفت، لترى عينيه متسمرتين في كيانها.

*****

-38-

حينما وصل خليل وجميل إلى زقاق المضافة، سمعا صوت الضحك الجماعي ينطلق منها. هدأا، ووقفا يتبادلان النظرات التي تدل على أنهما تعرضا لخديعة من فريد، فالجو في المضافة كان منشرحاً على الآخر، ولو أن أبو سمير "ضراب الطوب" سيعتدي على أبو خليل لانقلب الجو إلى صراخ وشتائم.

قرب خليل وجميل أذنيهما من فتحة باب المضافة، فأخذت تتناهى إليهما أصوات تعليقات الرجال، يليها ضحكٌ قوي.

رجل أول: لازم نوقف كلياتنا مع السيد فريد في محنتُه، كرمال أخونا أبو خليل عَ القليلة. تصوروا، وجّ أبو سمير كان على بعد عشر صَنْطي من كفه، ومع هيك ما حِسِنْ يضربُه كفين مثل فراق الوالدين!

رجل ثان: الحق عليك يا أبو خليل، لما ركبت للشباك شَبَك حديد، لازم تترك فتحة مخصصة لضرب الكفوف!

رجل ثالث: هاهاهاي.. وهيك بينطبقْ علينا المتل: الكف لمن سطره.

ثم سمعا صوت أبو خليل يقول:

- الله يخليك يا أبو سمير، لا تزعل من فريد. ترى والله قلبه طيب، وبيحبك.

أبو سمير: وأنا والله أحبه، وبعرف أن قلبه طيب، لكن مو هادا سبب حبي إله، بحبه لأنه محبوس وعم يعاني من طول وقت الفراغ، ومع هيك ما ضربني الكفين بحجة أنه مشغول!.

* * * * *

-39-

لم يعاتب أبو خليل فريد بسبب المشكلة التي وقعت بينه وبين أبو سمير ضراب الطوب.. وعلى الرغم من أنه أحس بشيء من الخجل أمام رجال الحارة، فقد وجد فكرة أن يَضرب ولدٌ في عُمر فريد كفين لرجل من عُمر والده غايةً في الطرافة. وزاد في دهشته أن ولديه خليل وجميل أخبراه، صباح اليوم التالي، عندما كانوا في الفلاحة، كيف لعب فريد بعقليهما في سهرة البارحة، وجعلهما يركضان إلى مضافة أحمد آغا الدمخ مثل المجانين، عندما زعم أمامهما أن أبو سمير يمكن أن يضربه، فلما سمعا الأحاديث والضحكات عادا من حيث أتيا.

توصل الأب وابناه إلى شبه اتفاق بأن يتركوا فريد وشأنه، لأن توجيه اللوم إليه في كل شيء سيجعله يخترع أكاذيب جديدة، فيوقعهم في مشاكل لا نهاية لها. ولكن حسابات السوق لا تتطابق – كما يقولون – مع حسابات الصندوق، فخلال فترة وجيزة؛ أوقع فريد الأسرة بمشكلة لا تقل فداحة عن سابقاتها.

*****

انتشر خبرُ سجن فريد في الحارة الشمالية، ومنها انتقل إلى مختلف أنحاء البلد، حتى وصل إلى حارة "العقيبة"، حيث يقيم صديقُه الصدوق "أبو برداغة". أبو برداغة في الثلاثين من عمره، يعني أنه أكبر من فريد بخمس عشرة سنة تقريباً، ولكنه قصير القامة، حينما كانا، قبل وضع فريد في السجن المنزلي، يمشيان معاً في الحارة، أو في الساحة التحتانية، وأحدهما يتأبط ذراع الآخر، يظهر فريد أطول من أبو برداغة بشبر على

الأقل.. وهو رجل غير متعلم، وليس في يده مهنة يعيش منها، لذلك، ولكي يؤمن معيشته ينزل، في الصباح الباكر، إلى سوق الهال، يشتغل بوظيفة "قبانجي"، حتى الظهيرة، ثم يأتي إلى ساحة الخضار، ويجلس مقابل دكان "الحاجي الدَليل"، وينقل أغراضاً لبعض الميسورين، إلى دورهم، مقابل أعطيات تتفاوت بحسب كرم الزبون أو بخله، وبعد العصر يتجه إلى شقته الصغيرة، التي يربّي فيها كلاباً جعارية.

المهم، سمع أبو برداغة خبر سجن فريد في غرفة بدار والده، فضحك حتى كاد يتبول في سرواله. وجاء إليه. وجده واقفاً ضمن إطار النافذة المحمية بقضبان وعوارض حديدية، يبهدل ولداً كان ماراً في الزقاق.

سر فريد لرؤية أبو برداغة، وقال للولد:

- يا الله روح لعند أمك، أنا انشغلت هلق، يبقى ببهدلك بعدين.

وقال لأبو برداغة:

- أهلين أبو برداغة. جيت في وقتك. قبلما يحبسني عمك أبو خليل، كنت راجع من المدرسة، شفت كلب جعاري مبركَع، دَانُهُ اليمين مقطوشة، قمت تذكرتك!

ضحك أبو برداغة وقال له:

- وأنا شفت جحش صغير عم يشمشم الفِشْكْ وبيرفع داناته لفوق، فتذكرتك.. المهم. قَرّب دانك، حطها على الشبك، بدي أحكي لك شغلة.

قرب فريد أذنه، فقال:

- أنت بتعرف الأستاذ أسعد الباتنتي. صح؟

- أي بعرفه، إشْبُه؟

- صار في بيت خالته.

- ببيت خالته سمية؟ طيب ليش ما بقي في داره؟ لا يكون باع الدار..

- بالفعل أنت جحش يا فريد. أخدوه عَ بيت خالته، يعني صار عند "الجماعة" (وغمز له بعينه).. وبحسب ما سمعت، إنهم ضاربينه ومعذبينه، وفي الأخير زاتّينه في المنفردة.

- أنا يا أبو برداغة جحش صغير، لكن أنت حمار كبير، هردشّ، أنت اللي قلت أخدوه عَ بيت خالته، طيب مين هني اللي أخدوه؟ وليش؟ وكيف بيضربوه وبيسكت؟ ليش ما بيضربهم هوي؟ وأيش هاي المنفردة؟

شرح أبو برداغة لفريد أن المخابرات (فرع السياسية) هم الذين أخذوا الأستاذ أسعد، لأنه شوعي[17]، وأما المنفردة فهي غرفة مثل هذه التي يسجنه أبوه فيها. وضحك أبو برداغة، وقال:

- ولاك فريد الجحش. لا يكون أبوك حابسك في هالمنفردة لأنك شوعي؟

* * * * *

17- أكثرية الناس غير المتعلمين يقولون عن الشيوعي: شوعي. وبعضهم الآخر يقول: شيعي.

-40-

ينتهي سجن فريد اليومي مع عودة أبو خليل وخليل وجميل من الفلاحة، ويلتم شمل الأسرة على وجبة العشاء.

كان أبو خليل وخليل وجميل يأكلون بشراهة، كالعادة، لأنهم يأكلون أثناء الشغل أشياء خفيفة، مما تضعه أم خليل في الزوادات، والعشاء هو الوجبة الرئيسية الدسمة.

فجأة قال فريد لجميل: رفيقك أسعد الباتنتي صار بفرع السياسة، ضاربينه بخرطوم المرحاض عَ طَنَّازته، لأنه "شيعي".

توقف الجميع عن تناول الطعام، وتجمدت اللقيمات في حلوقهم، وبالأخص صبرية، الأخت الوسطى، فأم أسعد زارت والدتَها قبل أيام، وطلبت يدها لأسعد، واتفقتا على أن يأتي الرجال لزيارة أبو خليل، ويطلبوها منه بشكل رسمي.

صاح أبو خليل: أشو عم تحكي ولاك جحش؟ شلون يعني أسعد صار شيعي؟

- والله يا ياب، أنا ما بعرف كيف صار شيعي.. بتحب أحكي لك القصة متلما صارت؟

- احكي لشوف.

- أنا كنت قاعد في غرفتي، كافي الناس خيري وشري، وإذ بيجي لعندي أبو برداغة، وبيعرُض عليّ أشتري منه كلبة جعارية مبركعة، قلت له: إذا

اشتريت منك الجعارية وين بدي حطها؟ مانك شايفني قاعد في هالغرفة اللي متل المنفردة؟ فضحك وقال لي: على سيرة المنفردة، الأستاذ أسعد الباتنتي، أخدوه جماعة السياسة، وحطوه في المنفردة، لأنه، اللهم عافينا، صاير شيعي، وقال لي كمان: دير بالك، ترى هادا أسعد رفيق أخوك جميل، وممكن ياخدوا جميل، ويضربوه، ويخلوه يعترف إنه كمان صاير شيعي. خاي جميل بَشّرني، انشالله مانك شيعي؟

بهت جميل، وأما خليل فأوضح لأبيه أن فريد يفهم القصة بشكل خاطئ، فأسعد شيوعي، وليس شيعياً.

غضب أبو خليل وصاح:

- ان شاء الله يكون فَرْمَصُوني، أنا فاضي لهالعلاك؟

ورفع منفضة السجائر مهدداً بها فريد، وقال له:

- قوم انقلع من وجهي.

خرج فريد. تابع أبو خليل مخاطباً أم خليل:

- بعد هالمرة خدي له الأكل عَ غرفته، لعنة الله عليه وعلى الساعة اللي بلاني ربي فيه، كلما قعد معنا بيخضّ لي بدني، وبيفوّر لي دمي.

بعدما هدأت ثورة أبو خليل، اقترحت عليه أم خليل أن يذهب برفقة خليل وجميل لزيارة أبو أسعد الباتنتي، ومواساته، وخلال الزيارة يمكنهم أن يفهموا منه كيف صارت القصة، ويا ترى هل صحيح ما قاله فريد أن جميل ممكن أن يتضرر من هذه المشكلة؟

قال أبو خليل مخاطباً ولديه بنبرة أقل حدة: أمكم بتحكي عن فريد

وكأنه رشدي بيك الكيخيا أو ناظم القدسي. بدي أفهم، هالمجنون أشو عَرَّفُه بهيك خيلات؟

وقال لها: روحي أنت لعند أم أسعد، واسأليها – من تحت لتحت – عن القصة. وبخصوص خطبة أسعد لصبرية، قولي لها (ما في نصيب). أنا ما ناقصني وجع رأس مع فرع السياسة، عم تفهمي؟

تدخل جميل قائلاً: طول بالك ياب، صحيح أنه أسعد الباتنتي رفيقي، ولكن أنا ما لي علاقة بشيعي ولا بميعي، ولا بفهم بكل شغل السياسة. وأيمتى بدي أشتغل بالسياسة لك ياب؟ مو كل يوم مع بعضنا في الفلاحة من الصبح للمغرب؟ أشو نسيت؟

* * * * *

-41-

أم خليل؛ بذكائها الفطري، وطيبة قلبها الاستثنائية، أبقت على شعرة معلقة مع أسرة أسعد الباتنتي الذي يريد أن يتزوج ابنتها صبرية، فهي تنظر بحسرة إلى بناتها نذيرة وسلمى وصبرية وخيرية اللواتي دخلن سن الزواج، تباعاً، وما زلن، مع ذلك، خارج نطاق التداول، ولأن صبرية أجمل من شقيقاتها، فقد تحركت أسهمها، وطلبتها أم أسعد لابنها، فسرت لذلك سروراً عظيماً، وقالت لنفسها، إذا تزوجت صبرية، وبدأت نساء البلد يتحدثن عن نظافتها، وشطارتها في صناعة المؤن والقديد والخبيز على التنور، وطاعتها لزوجها، وتعاملها الطيب من بيت حميها، لا بد أن ينطلق نصيب شقيقاتها الأخريات، بالتتابع، تحصيلاً لحاصل.

*****

حلفت أم أسعد لأم خليل يميناً معظماً على أن أسعد ما هو شوعي (شيوعي)، ولا ما يحزنون.. وتابعت بلهجة إسرار:

- لما كان أسعد في الصف الأول بدار المعلمين، وكان عندنا هادا، الرئيس الغربتلي، أشو كان اسمه؟ أي، تذكرت، اسمه جمال عبد الناصر، بوقتها كبسوا علينا، عناصر السياسة، وأخدوه، وضربوه بالفلق، وقالوا له (أنت شوعي)! والقصة نامت بعدين وانتست. بس هلق كأنّه فيه "ابن حرام" من البعثية متذكرُه، وكاتب بحقه أنه شوعي.. وعلى كل حال القصة بسيطة، أخوي سمعان راح مبارح عَ الفرع، وسأل عنه، وقالوا إنهم راح يدشروه بهاليومين.

*****

-42-

في الدار، بعدما تناولت الأسرة طعام العشاء، أخبرتهم أم خليل بما سمعته من أم أسعد. ولكيلا ينهالوا عليها بالاستفسارات، قالت:

- ما حكينا بسيرة الخطبة، لأن الوقت ماو مناسب، وعلى كل حال ابنهم عندهم، وبنتنا عندنا، وكل شي بيعود للنصيب.

وللتغطية على موضوع الخطبة، سارعت إلى طرح فكرة أخرى، وهي أن بعض نساء الحارة يحضّرن أنفسهن حالياً لزيارة الشيخ عبد الحنان، قدس الله سره، وقد طرحن عليها الفكرة، فطلبت منهن مهلة، حتى تشاور صاحب الدار. وقالت لأبو خليل:

- أنت بتعرف يا أبو خليل، أنا ما برفع إيدي عن رجلي من دون شورك. وبتمنى أنك بهالشغلة ما تخجلني.

تبرم أبو خليل، وأدار وجهه عنها، ونفخ غيظاً، ولم يجب.

قال خليل: يام؛ أشو الهدف من هالزيارة؟

قالت: عم تسألني عن الهدف يا خليل؟ ليش أنا عندي هَمّ أكبر من هَمّ فريد؟ صدقني، كلما صليت وقت صلاة ببوس الأرض وبدعي الله يشفيه، ويزينه بعقله، متل كل شباب هالحارة والبلد. بعدين أنا مو لحالي اللي عندي بلوة في هالدنيا. جارتنا أم سليمان جوزت إبنا الوحيد، من أربع سنين، ولحدّ هلق كَنّتا ما حبلت، وأم عبودي ما تركت حكيم في إدلب وحلب إلا وأخذت ابنها الزغير، وعرضته عليه، المسكين صار عمره عشر سنين، ولسه بيشخ في تيابه، وأبو نظمي الفستقي، طلع له

حودير في خده الأيمن، كتبوا له عليه آية الكرسي تلات مرات، وما استفاد شي، فقالت له أم نظمي: ما لنا غير الشيخ عبد الحنان.. ونحن سعرنا بسعر هالناس، مناخذ فريد، ومنسقيه من المَي الطاهرة، عسى الله يشفيه، ويعقله.

قال أبو خليل: كبري عقلك يا أم خليل، الشيخ عبد الحنان ميت من خمسين سنة، وعضام طيزه صارت شبَّابة، يعني شواهد قبره بدها تمد إيدها وتمنع الولد من الشخاخ، وتحبّل الكنة، وتشفي الحودير؟ بعدين الشيخ عبد الحنان بده يشفي ابننا فريد من أيش؟ من دون يمين فريد بيقلع شجرة توت مشرشة، وبالنسبة للجنون ما إله غير حل واحد، هو أن ناخده على مستشفى الدويرينه بحلب..

صاحت تلقائياً: لا.

- تطمني يا أم خليل. ما رح آخذه عَ الدويرينه، ولكن بترجاكي اعفيني من زيارة مقام الشيخ. بيرضيكي نترك شغلنا ونستأجر سيارة، وندفع الشيء الفلاني، ونروح لهنيك، مع أني منعرف النتيجة سلف؟

*****

-43-

تلقى فريد خبر زيارة مقام الشيخ عبد الحنان بفرح يجل عن الوصف، صار ينط ويصفق، ويدبك ويغني بطريقته غير المفهومة:

شمر زنودو عمي

أبو المشداقْ

وأرخى فتايل وَبَرُو

زبر الحمار

ثم اتجه إلى غرفة سجنه، وأغلق على نفسه الباب، وهرع إلى النافذة ذات الشبك الحديدي، فتحها، وصار كلما مر واحد من معارفه، يزف له الخبر السعيد، وهي أنه ذاهب مع أسرته، وكثيرين من أهل الحارة لزيارة مقام الشيخ عبد الحنان.. وفجأة، رأى الأستاذ علاء قادماً من عمق الزقاق، فهدأ، وأخذ وضعية الفتى العاقل، وعندما اقترب علاء، وسأله عن أخباره، قال:

- ما في شي يا أستاذ. بس أهلي مجانين حاشاك. قال بدن ياخدونا ع الشيخ عبد الحنان، منشان إذا فينا مرض يطيب. هادا الشيخ يا أستاذ ميت وشبعان موت، شلون بده يشفي الناس؟ أشو هوي الدكتور حكمت الحكيم، ولا الدكتور جورج غنوم؟

ابتسم علاء: وبدن ياخدوك مَعُن؟

- أي نعم. أمي طالع براسها إني أنا مجنون ومشوّب. مع إنه عقلي بيوزن جبل. خوش أنت بتعرفني أستاذ. مو بتعرفني؟

قال علاء والابتسامة تغالبه: طبعاً بعرفك. أعقل منك ما مر علي.

تابع علاء طريقه، ولكن فريد استوقفه، وقال:

- أستاذ أستاذ.

وقف علاء، وعاد باتجاهه.

- أستاذ ليش ما بتروح معنا أنت وخالتي أم علاء، وهاية..

- مين هاية؟

- قصدي كلياتكم. مو ضروري الواحد يكون مريض أو مجنون حتى يروح. يعني أستاذ، بتروحوا متل هالناس.

- طيب يا فريد. منفكر فيا.

*****

-44-

كانت العادة، في تلك الأيام، أن تستغرق زيارة مقام الشيخ عبد الحنان أربعاً وعشرين ساعة تقريباً. يتفق الرِجَال مع صاحب البوسطة "ابن سَفْلو" أن يأخذهم إلى المقام مساء الخميس، ويلحق بهم مساء الجمعة ليعيدهم إلى إدلب.. وبما أنه لا يوجد هناك سوق، أو دكاكين، فلا بد أن تجهز النسوةُ زَوَّادات عامرة بخبز التنور، إضافة إلى الأكلات التي يَسهل تحضيرُها وحملها وحفظها.

يوجد، بجوار المقام مكان مسقوف، له باب كبير دون قفل، يدخله الزوار، ويمدون في جوانبه الحصر المصنوعة من قَش الزل، والفرش الرقيقة، وفوقها البطانيات لكي يتغطوا بها في الليل. ولعل ما يجعل هذه الإقامةَ المؤقتة ممكنة، وجودُ ساقية ماؤها عذب، تسيل من سفح الهضبة الصغيرة المرتفعة فوق مستوى المزار، تصب في البناء من الخلف، وتخرج من الأمام ضمن ساقية حجرية صفراء محجرة بقطع زرقاء وخضراء وبيضاء.

رضخ أبو خليل لمشيئة زوجته، بعدما طرق بابَه نفرٌ من رجال الحارة، ورحبوا بوجوده معهم في رحلة الغد، ما أوحى له بأن أم خليل وصويحباتها قد رتبن الأمور كلها قبل أن يصل الخبر إليه، ولأن أم خليل امرأة قانعة، مسايرة، قليلة الطلبات، فقد أظهر أبو خليل نفسه أمامهم بأنه موافق على الفكرة منذ البداية، وأنه بحاجة لمثل هذه الاستراحة، بعد زمن طويل من العمل اليومي الشاق في الفلاحة، وعلى كل حال الشغل لن يتعطل، فخليل وجميل موجودان، والحمد لله.

*****

-45-

أصرت علياء، بعدما سمعت من علاء أنه التقى بفريد، أن يعيد على مسمعها تفاصيلَ الحوار الذي جرى بينهما، أكثر من مرة، وشرعت تلاحقه بأسئلة ذكية توحي لمن يراها ويسمعها لأول وهلة بأنها طبيبة نفسية تحاول أن تصل إلى لب مسألة معقدة تريد أن تتقصى عنها.

توصلت، بينها وبين نفسها، إلى أن احتمال أن يكون فريد مصاباً بمرض عقلي أصبح الآن أقل من السابق، ودليلها أنه حفظ السر الصغير الذي استأمنته عليه، بعناية، واكتشفت أن لدى فريد رغبة بأن تكون هي معه في الرحلة، ولكنه لف ودار بالكلام، لئلا ينتبه علاء لوجود شيء خاص بينهما.

قالت لعلاء: سؤال أخير.

- أشو؟

وفي هذه الأثناء تناهى إلى سمعها زمور البوسطة، فقالت: آ.. لا لا، بوقت تاني. أنت طالع؟

- أي.

- طيب روح. منحكي بعدين.

وبعدما خرج علاء، هرعت إلى غرفتها، ارتدت ثيابها، ورتبت شعرها ومكياجها، وخرجت.

*****

فجأة؛ وبلمح البصر، وبينما كان السائق "ابن سفلو" يُقلع بالبوسطة، اندفع فريد الذي كان جالساً في الصف الخلفي بين الركاب

إلى الأمام، وهو يقول هوب هوب، وأنظار جميع أهل الحارة الجالسين في مقاعدهم تعلقت به، لا يدري أحد ما حل به، وعندما تجاوز مكان جلوس أبيه وأمه أمسك به أبو خليل من يده، ولكنه تملص منه، وقال مخاطباً السائق:

- دقيقة خاي أبو عبدو. نسيت شغلة.

ونزل، وركض باتجاه الدار، حيث كانت عليا ماشية، حتى إذا وصل إلى منعطف الشارع، وقف في الزاوية الصغيرة التي كان يتعربش عليها حينما يدخل الدار، وألصق ظهره بالجدار، وانتظرها حتى وصلت إلى جواره، فاقتربت منه، وقالت:

- كويس أني شفتك. روح عالباص، بلا ما يشتلقوا علينا. ودير بالك علينا.

هز رأسه فاهماً، وعاد بسرعة إلى الباص، صعد وقال للسائق: (روح أبو عبدو الله معك).

*****

-46-

مضى القسم الأول من الزيارة (الاستشفائية) بنجاح. في حدود الساعة التاسعة والنصف ليلاً، تناولت كل أسرة كمية قليلة من زوادتها، وتركت الباقي لغداء اليوم التالي.

هنا، على وجه التحديد، بدأ الفيلم الخاص بفريد. فبعد العشاء بقليل، راح يتظاهر بالنعاس، ويتثاءب بصوت مسموع، دون أن يغطي فمه بيده. وقال لأمه:

- يام أنا نعست. بدي نام.

قالت له: تقبر قلبي، تعا يا الله، نام.

وسطحته على الدشك القماشي، وغطته ببطانية وراحت تتمتم بتلاوة ما تحفظ من آيات قليلة تستخدمها أثناء الصلاة. ثم قالت له بصوت هامس:

- حبيب قلبي فريد، لما كنا في الباص، أشو صار معك؟ ليش وقفت الباص ونزلت بسرعة؟

رد عليها بصوت متناوم: يام بحكي لك بعدين. لأني هلق كتير نعسان. هي قالت لي دير بالك ع حالك. أنا أشو بده يصير لي هون؟ أكل ومرعى وقلة صنعة. بس بدك المظبوط؟ أنا ما شبعت.

- مين اللي قالت لك تدير بالك ع حالك؟

- نفسي يام. أنا دائماً بحكي حالي.

وأغلق عينيه الخضراوين الجميلتين، وشخر.

لم يتمكن فريد من النوم في تلك الأمسية. راح يسترجع في مخيلته

صورة عليا، مشيتها، واهتزاز ردفيها، ويتذكر تلك اللحظة حينما اقتربت منه وغرز عينيه في فتحة قميصها بين النهدين، وتتردد في أذنيه عبارة "دير بالك ع حالك". استوى جالساً فوق الدشك، وأسند ظهره إلى الجدار الحجري الذي تَحَتُّه الرطوبة وتجعله يهرهر فيصبغ الثياب بالأبيض. شعر بالضيق من وجوده بعيداً عن إدلب والحارة التي أصبحت بالنسبة إليه تعني عليا وبس.. فجأة شعر بحقد على هؤلاء الموجودين هنا، وحتى "أبوه"، شعر بغضب منه، وحقد عليه. إنه يعتني بكل أفراد الأسرة الآخرين، وأما هو فيعامله وكأنه عدوه.

شعر بالجوع. صار يتحرك بين النائمين، بحثاً عن الزوادات، وكلما عثر على زوادة، يفتحها، ويلتهم بعض محتوياتها، وينتقل، زحفاً، إلى مكان نوم أسرة أخرى، ثم عاد إلى مكانه، وحاول أن ينام. لكنه لم يستطع ذلك، فقد سمع أنيناً يصدر عن رجل مسن هو "الحاج برهو اخرطي". بلغ فريد، بسماعه صوت الأنين، قمة السرور، فقد عثر على شيء يسليه. زحف باتجاهه، حتى صار قريباً منه. كان الحاج برهو يئن ويتنفس بصعوبة. يقول: آآآآخ. فيجيبه فريد بصوت خافت: وسَلَّاخ يسلخ جلدك عن لحمك! يقول الحاج برهو: يا ياب دخيل الله. فيقول له فريد: ورصاص يفك لحامك. وبرابللو يجقم حنكك.

استمرت الحوارية الغريبة نحو نصف ساعة، وساد بعدها الصمت، فاضطر فريد لأن يعود إلى مكانه. وشعر هذه المرة بالنعاس، فنام قرير العين.

* * * * *

-47-

عاد أهل الحارة التي يسكن فيها العم أبو خليل من رحلتهم إلى "مقام الشيخ عبد الحنان"، حاملين معهم جثمان "الحاج برهو اخرطي" الذي توفي أثناء الرحلة..

كان هدف تلك المجموعة من زيارة المقام علاجياً بحتاً.. فلديهم اعتقاد – لا يداخله شك – بأن ماء الساقية الذي يجري من عتبة الضريح يشفي الإنسان من كل الأمراض السارية والمستعصية. سم بسم الله، وامسح مكان الألم بالماء يشفَ المريض بإذن الله، وأما بالنسبة للمرافقين، الأصحاء، فلا بأس أن يمسحوا جسومهم بالماء، من باب الوقاية!.

الطريف في الأمر؛ أن كل واحد من مرضى تلك الرحلة مصاب بمرض واحد، إلا الحاج برهو اخرطي، فقد كان مصاباً بستة أو سبعة أمراض رئيسية: عمره 87 سنة، والتقدم بالسن بحد ذاته مرض، ومعه سكري، وضخامة في البروستات، وارتفاع في ضغط الدم الشرياني، وقبل مدة قصيرة تورمت رجلُه اليمنى، وصار يعرج أثناء المشي، وكانت ثالثة الأثافي الجلطة الدماغية اللي أصيب بها من شهرين، وأثرت على حركة شفته الفوقانية ويده اليسرى.

وأما بطل قصتنا، فريد، فكان في قمة السعادة، والنشاط، والانطلاق. وكانت زيارة المقام، بالنسبة إليه، جيدة، لأن فيها حركة وسفراً ورؤية مكان له خصوصية، يقع في سفح جبل، وتُسمع فيه، أثناء الليل، أصوات حيوانات داشرة، لم يكن يضايقه سوى أمر واحد، هو

ابتعاده عن المكان الذي يوجد فيه احتمال أن يرى عليا، ويستمتع بنظراتها العاشقة التي تتجلى بتدوير فمها، وتذبيل عينيها، وكيف أن صوتها يرق حينما تكلمه..

المهم، في الصباح، كان واقفاً في غرفته/سجنه، ملصقاً وجهَه على الشباك المطل على الزقاق، فلفتت نظرَه سرعةُ الناس الذاهبين الآيبين في الزقاق، وبالأخص القادمين من الشمال باتجاه الجنوب. وكان من جملة العابرين "أبو أحمد الفنكري"، المعروف بلقب (الحافظ) لأنه يعرف ويحفظ كل ما يجري في المدينة من زيجات، ومصاهرات، وأصول، وأنساب، ومشاجرات، ووفيات، وأحداث مضحكة، وكانت له هواية غريبة، تتجلى بمناكفة ذوي العقول المضطربة العاقلين، وأما الشرسين، مثل فريد، فيتحاشاهم، وقد بقي يبتعد عن فريد حتى سجنه أبوه، ومن وقتها صار يتلذذ بمشاكسته كلما مر من الحارة، وقد شبهه ذات مرة بالضبع الكاسر الذي يتحول إلى فرجة للأولاد، بعدما يصطاده "الطَّفَّاش"[18]، ويضعه في قفص حديدي.

لاحظ أبو أحمد اهتمام فريد الزائد بمعرفة خبر ما يجري في الحارة، فاقترب منه، وقال له:

- بسلامتك من هالحبس يا "أبو الكاميرا".. أيش بك؟ ليش عم تحوص متل جيجة وصلانة البيضة لباب طيزا؟

- أهلين فنكور. أشو صاير في البلد؟ ليش هالعالَم عم يركضوا شمال ويمين؟

18- يذهب الطفاش إلى وكر الضبع، ومعه قفص حديدي كبير، يضعه عند باب الوكر، ثم يغطس قطعة قماش ملفوفة حول عصا طويلة، بالمازوت، ويشعلها، ويدخلها إلى الوكر.. يتضايق الضبع وأسرته من رائحة الدخان الثقيل فيخرجون، ويجدون أنفسهم في القفص.

- لازم يركضوا، بدن يلحقوا الصلاة بجامع الساحة عَ "الحاج برهو اخرطي".

ضحك فريد وقال: بالله؟ أي بسيطة. الله يرحمه على كل حال. أنت بتعرف يا فنكور شلون مات الحاج برهو؟

- الشغلة ما بدها ذكا يا أبو خف الرياضة. رجّال كبير، مات لأنه عمره خالص.

– لأ، مو صحيح. الحاج برهو ما كان فيه شي، أنا مَوَّتُّه!

دهش أبو أحمد الفنكري، واقترب منه أكثر، وسأله:

- عم تحكي جد ولاك مصروع؟ شلون مَوَّتُّه؟

- أول البارحة، الخميس، رحنا كلياتنا ع مقام الشيخ عبد الحنان. المسكينة أمي عقلا زغير، حاطة في بالها إني مجنون، قامت أخدتني ع المقام منشان صير عاقل، مع أن عقلي بيوزن جبل.

- بعرف بعرف. كمان سمعت إنك عم توزع عقل ع المحتاجين. المهم قل لي، كيف مَوَّت الحاج برهو؟

- في الليل، ناموا الناس اللي معنا، وأنا ما حسنت نام. بتعرف ليش؟ لأني مبسوط كتير بهالأيام. وجعت، قمت وصرت أمشي، وصلت لمحل نايمين بيت الحاج برهو، فتحت الزوادة تبعه، وصرت آكل، كان الخبز فيها يبسان، والأكل ماو طيب، انزعجت منه.

- منشان هيك قتلته؟

- وحد الله فنكور. الله وكيلك ما دقرته. بس هوي كان عم يعنّ ويطن.. وأنا استلمته، كلما يقول (آخ يا خاي)، كنت أقول له: وقواس يفك لوح كتفك.. وبقيت مستلمه حتى سكت. وأنا ليش سكت ما عرفت، تاني يوم الصبح سمعت أبوي عم يقول الله يرحمه الحاج برهو. مات.

*****

-48-

لا يعرف أحدٌ من مشيعي جثمان الحاج برهو اخرطي ما الذي جرى على وجه التحديد حتى تكهرب الجو خلال تشييع الجنازة. فأثناء حمل المقصورة، والسير بها باتجاه مقبرة الحَلفا، لاحظ أحدُ أبناء المتوفى الحاج برهو اخرطي وجود العم "أبو خليل" وولديه خليل وجميل بين المشيعين، فاحمرت عينه منهم، وصار يبربر بكلمات حانقة، وكاد أن يفقد صوابه ويتجه نحوهم ليطردهم من المكان.

وكان من حسن الحظ، أن انتبهَ لذلك "الحاج خيرو الدكاك"، فسارع، بحكمته المعهودة، إلى منع الصدام.. ودون أن ينتبه إليه أحد؛ تقدم من أبو خليل، وهمس في أذنه بضع كلمات جعلته يندهش، وبعد قليل انسحب مع ولديه من موكب الجنازة، وعادوا إلى دارهم مسرعين.

*****

-49-

كان أبو خليل قد أعلن التوبة عن الخوض في أي جدال مع ابنه المجنون اللعين فريد، لأن السين والجيم لا بد أن يدفعاه إلى اختراع المزيد من الأكاذيب.. ولكن الغضب مما جرى أثناء تشييع جنازة الحاج برهو أفقده صوابه، وبمجرد ما دخل مع ولديه الدار، هرع إلى غرفة السجن، فتح الباب، وأمسك فريد من ياقته، وجذبه إلى الخارج، وباشر التحقيق معه:

- اسماع ولاك حيوان، بدي أسألك سؤال واحد، بتجاوبني عليه من دون لف ودوران.

- لَهْ يا ياب، لهْ، ليش أنا بالعادة بلف وبدور وبتطعوج وقت بحكي معك؟

- أول البارحة، لما كنا في زيارة مقام الشيخ عبد الحنان، أشو اللي صار بينك وبين المرحوم الحاج برهو اخرطي؟

- ياب؛ أنا كنت جوعان، والناس نايمين، وما في غير هوي فايق. وكان عم يزعج الناس النايمين بالعنين تبعُه. بدك المظبوط ياب؟ هاي قلة وجدان منه.. أنا لما كنت في المدرسة، قبلما تحبسني بالمنفردة، كان الأستاذ عبد الله يعلمنا (أن حرية الإنسان تنتهي عندما يتحرحر غيره).

- أشو أشو؟ يتحرحر؟

- نعم ياب، وأنا تضايقت منه كتير، مو عيب عليه يعن ويحرحر الناس النايمين؟ صرت أستناه ليقول آخ، وأقول له: سَلَّاخ.. يقول آخ يا يام، وأنا أقله (وضريب يدفشك لقدام).. ولما هو سكت، أنا سكتت. وعلى كل حال الحق مو عليه.

- نعم؟ لكان الحق على مين؟

- على أبو أحمد الفنكري. مر اليوم من قدام الشباك، وصار يسألني أسئلة. ولما حكيت له أشو اللي صار معنا في الزيارة، قال لي: هاه، معناها أنت اللي قتلت الحاج برهو اخرطي.. وهددني، وقال لي إنه ما راح يسكت عن هالشغلة لو بيصير الدم للركب. قلت له: فتح عينك ولاك فنكور، أنا ابن مرعي السبنَّان على سن الرمح، وهادا التهديد تبعك ما بيغبّر على قفا جاروخي. قال لي: هه هه، يعني بتعترف بأنك مَوَّتت الزلمة؟ فقلت له: نعم سيدي، مَوَّتُّه، وأعلى ما بخيلك اركبه!

لم يكمل أبو خليل حواره مع فريد، إذ تدخل خليل قائلاً:

- بعد أمرك ياب، الحكي مع هادا المجنون فريد ما بيجيب نتيجة، وأنا شايف الوضع خطير ولازم نتصرف، هلق ولاد الحاج برهو بيخبروا كبير عيلتهم الحاج مصطفى اخرطي، وهادا متلما بتعرف، عقله جوزتين بخرج..

- المعنى؟

- والله ما بعرف أشو بدي قلك، أنا ما بستبعد أنه الحاج مصطفى يجحّش، ويبعت لنا كام أزعر يهجموا علينا، وبوقتا نحن بدنا نجحش، وهيك بيكون فريد أفندي دخلنا بستمية حيط.

- آ؟ طيب اسماع لقلك، روح هلق، عالحارك، على دار الحاج خيرو الدكاك، وقول لعياله يخبروه، لما بيرجع من الجبانة، أنا بدي شوفه. وأنت يا جميل، روح ع دار الأستاذ علاء، وقول له إني بدي شوفه ضروري.

نط فريد مثل غزال مستنفر، وقال: ياب أنا بروح لعند الأستاذ علاء.

وركض باتجاه الباب، ولكن أبو خليل صاح: ارجاع ولاك. أنت بترجع ع غرفتك، وعَلَوَّا تسكر الشباك من طرف الصآء. إنته بدك تقتلنا بجنونك وجحشنتك؟

* * * * *

-50-

أصرت أم علاء على جميل، أن يدخل، ويتناول كأساً من الشاي ريثما يصل علاء الذي ذهب إلى "دكاكين نيدر" لكي يشتري لها "مكعبات الزَرَاق" التي توضع مع الثياب البيضاء في الغسالة. أجلسته على الكَرَويت في غرفة الجلوس، ونادت على علياء، وطلبت منها أن تضع أبريق الشاي على البوتوغاز.. ثم سلمت عليه، وسألته عن أم خليل، وشقيقاته البنات. كانت إجابات جميل سريعة ومختصرة، بسبب المهمة المستعجلة التي حضر من أجلها. قالت أم علاء:

- خير يا خاي؟ أشو صاير عندكم؟

حكى لها جميل ما جرى أثناء تشييع جنازة برهو اخرطي، وكيف أن آل اخرطي يحمّلون مسؤولية وفاة الرجل لأخيه فريد.

دخلت علياء، ومعها كؤوس الشاي. يبدو أنها سمعت الجزء الأخير من الحديث، فقالت:

- مريت من كم يوم قدام داركم، لقيت فريد محبوس في الغرفة اللي جنب باب الزقاق، ولما رحتوا ع الزيارة شفته معكم. قلت لحالي منيح طلعتوه من حبس الغرفة.

- بصراحة طَلْعته ما طولت، من وقت ما رجعنا أبوي قال رجعوه ع الحبس.

- ولأيمت بده يبقى هيك؟ يا جميل هادا إنسان، مو ضَبْع.. الغريب في الموضوع إن أخوي علاء هوي صاحب فكرة إنه فريد ينسجن. سألته عن السبب فقال لي إنه كل مشكلة بتصير معكم إنتوا بتحملوا مسؤوليتا لفريد.

قال جميل: خيت نحن ما منحمله المسؤولية من الباب للطاقة، لكن كل ما وقعت مصيبة، مندور على سببها، منلاقي إنه فريد وراها. هلق أنا جاية شوف علاء منشان مشكلة جديدة. الله يستر ما يروح فيها قتلى.

- أف. لهالدرجة؟ بدي إسألك، صحيح مثلما يقول الناس إنه مجنون؟

- مجنون. لكان عاقل؟

هزت علياء رأسها غير مقتنعة. قالت:

- بدي قلك كلام وبتمنى ما تزعل مني. مشكلتنا نحن أهل هالبلد أني ما منفهم بشي، ومنعمل حالنا فهمانين بكل شي. الواحد منا بتلاقيه طبيب ومحامي وقاضي و..

- وأشو؟

- وشرطي، وسجان..

- والله يا ست عليا أنا ما إلي علاقة بكل هالقصص. اللي بعرفه إنه فريد مجنن العيلة كلا، ومشيبنا قبل الأوان.

* * * * *

-51-

شهدت الحارة الشمالية، في ذلك المساء، نشاطاً محموماً، الهدفُ منه حل مشكلة التوتر الذي نتج عن وفاة الحاج برهو اخرطي.. الحاج خيرو الدكاك، وعلاء الرداد، حضرا إلى دار أبو خليل على جناح السرعة، وأبو خليل قال لهما، وهو يتقصد إسماع ولديه خليل وجميل:

- القتل والضرب بين ولاد البلد قلة عقل، وقلة قيمة، ومضيعة للوقت، ولا تنسوا أنه في شباب بينقتلوا، أو بتصيبهم جروح ورضوض، ما عدا العداوات اللي بتوقع بين الناس، وبتنتقل من جيل لجيل، الله يحم أبوي خليل السبنَّان، عاش 94 سنة، ومات، وكل أهل إدلب، من كبيرهم لصغيرهم بيحبوه وبيقدروه، مع أنه، طوال حياته، لم تشاكل مع حدا.

قال الحاج خيرو: وإنته كمان يا أبو خليل، بعمرنا ما شفناك علقان مع حدا.

- ومع هيك المشاكل لاحقتني. الخلاصة، أنا بعتت وراكم حتى تساعدونا بحل المشكلة مع بيت اخرطي، واللي بتحكموا فيه إنتو والناس الطيبين، أنا جاهز أعمله، وإذا حطونا بعد كل حساب في خانة اليَك، أكيد مندافع عن حالنا.

كان الأستاذ علاء يستمع لأبو خليل وهو مبتسم، فلما فرغ قال له، بلهجته المشحونة بالتهكم:

- لا تقلق عمي أبو خليل، بيت اخرطي جماعة أوادم، بدهم سلتهم بلا عنب. يوم علقوا مع عائلة "سَقّيلو" صار مدير المستشفى الوطني ينتّف بشعره ويقول (كرمال الله لا بقى تجيبوا لي مصابين، ما بقي عنا

سرير واحد فاضي). وكان سبب المشاجرة يوميتها كتير محرز، الحاج مصطفى اخرطي عزم صديقه الحاج عبدو سَقّيلو على أكلة رز وبامية، الزلمة اعتذر، وقال له إنه ما بيحب الرز وبامية، وبيفضّل الفريكة وفاصولية، انشالله تشيع البامية، فغضب الحاج مصطفى وقال له: تشيع أنت واللي خلفوك يا دقن الصرماي، بدك ياني أحب الفريكة وفاصولية؟ ومين أنت حتى تحكي هالحكي بحق الرز البامية؟ أنت واحد سرسري. واشتبكوا يا سيدي بالعكاكيز، وكل واحد أجوا قرايبينه، وصار الضرب بالعصي والجنازير والسكاكين مثل حرب اليابان.

هز أبو خليل رأسه وقال: أي والله. هادا اللي صار. يوميتها شاركنا كلياتنا في الصلح بين العيلتين. (وضحك على الرغم منه)، وما عدنا نعرف مين من جماعة الفاصولية ومين من جماعة البامية.

*****

-52-

كان الوضع في عائلة "اخرطي" في قمة التصعيد، فقد بلغ كبيرَهم، الحاج مصطفى، أن وفاة ابن عمه الحاج برهو كانت بفعل فاعل، هو فريد السبنَّان، فجن جنونه، ووضع أصابع يده فوق شاربيه، وقال:

- بيكونوا شواربي هدول على قحبة إذا ما خليت بيت سبنَّان يندموا على هالعَملة.

*****

-53-

الحاج خيرو الدكاك، الرجل الحكيم المحترم، صاحب الكلمة المسموعة في البلد، دعا الحاج مصطفى اخرطي وأبو خليل، وبعض وجهاء البلد، إلى سهرة في بيته، تخللها عشاء دسم، وصينية كنافة أم النارين، وألقى ما يشبه الموعظة، قال فيها إن الأعمار بيد الله، ولا يموت أحد في غير يومه، والحاج برهو، الله يرحمه، كان يعاني من أمراض كثيرة، ومهدداً بالموت في كل لحظة، والمثل يقول إن "الشاب بيموت، لكن الختيار بيموت بالتأكيد". وأضاف:

- أنا بدي ياك يا حاج مصطفى اخرطي، تتطلّع فيني، وتركز معي.. يا خاي نحن، أهل الحارة الشمالية، وأهل إدلب كلها، منعرف الأخ أبو خليل سبنَّان، ومنشهد إنه من أطيب الناس، بيمضّي وقته في الفلاحة، ولما بيرجع ع الدار، يا دوب يتعشى، ويصلي العشي، وينام، حتى يفيق الصبح بكير، وبيرجع تاني يوم على شغله، الرجال، بالمختصر، كافي الناس خيره وشره، لكن ربنا سبحانه وتعالى، جل إسمه، ما بيكملا مع الزلمة، رزقه بولد عقلُه بيخضّ، وفوقها شَرَّاني، ومئذي، لكن هوي لما شافه هيك، تركه يطلع ويئذي الناس؟ لأ، أبداً، حطه في داره، وسكر عليه الباب.

قال الحاج مصطفى، وعيناه تقدحان الشرر:

- كلامك يا حاج خيرو على العين والراس، كمان أبو خليل عَ العين والراس، لكن أبو خليل ما حبس "فريد" في الدار، وإلا كيف راح زيارة عَ مقام الشيخ عبد الحنان، وتسبب بوفاة ابن عمي الحاج برهو؟

تدخل أبو خليل، وقال:

- كل الحق معك يا حاج مصطفى. أنا والله العظيم ما كنت موافق على كل هالسفرة، لكن، على قولة المتل، كلمتين ع الدَان (الأذن) سحر، وأنت بتعرف قلب الأم، من كتر ما قالت لي أم خليل خلينا ناخده، بلكي الله بيشفيه وبيعقَل، حن قلبي، ووافقت، وأنا لما كنا في الزيارة، ما خليته يغيب عن عيني، الله وكيلك ما نمت لحتى شفته بعيني نام، أشو معرفني أنه راح يفيق بالليل، ويضايق الحاج برهو الله يرحمه؟ على كل حال أنا ما بلوم حدا، بلوم نفسي وبس.. بعمرك سمعت مجنون بياخدوه عَ قبر ولي صالح بيصير عاقل؟

وجد الحاج خيرو أن الأجواء أخذت تلين، فقال:

- يا جماعة، أمر الله صار، ولا اعتراض على حكمته، ويا حاج مصطفى، أنت كبير عيلة اخرطي، والناس بتحلف براسك الأيمان، وأخونا أبو خليل جاي لعندك مع هالوجوه الطيبة حتى يستسمح منك، ومن كل عيلة "اخرطي"، وأنت أكيد مسامحه. يا الله لأشوف. قوم يا أبو خليل بوس راسه للحاجي مصطفى.

قال أبو خليل: وَجَبْ.

ونهض متجهاً نحوه بسرعة كما لو أنه وجد الفرج.

*****

-54-

أحداث مهمة شهدتها أسرة "أبو خليل"، بدأت مع قدوم موسم قطاف الزيتون الذي يبدأ في مطلع شهر تشرين الثاني... في هذه الفترة، من كل سنة؛ يتوقف أبو خليل وولداه خليل وجميل عن الشغل في حراثة الحقول، والبنات يتوقفن عن تنجيد اللحف والخياطة النسائية وشغل المخرز، ويذهب الجميع للعمل في القطاف، ويتقاضى أبو خليل عن ذلك أجور سبعة عمال، وتكون غلته في آخر الموسم وفيرة.

قالت أم خليل: خلينا، قبلما نطلع عَ حواش الزيتون، نأخد "فريد"، ونحطه أمانة عند أختي أم أدهم، والمسا، ونحن راجعين، منمرّ عليهم، منجيبه، ومنجي عَ الدار.

- لا لا لا.. (رد أبو خليل حاسماً) ما بدي. جوز أختك أبو أدهم عقله جوزتين بخرج، وابننا مجنون، عليّ الجيرة إذا فريد غلط مع أبو أدهم، ما بقى بتنحل القصة بالهين. لسه يا دوب خلصنا من العلقة مع بيت "اخرطي".

- أشو عم تحكي يا رجال؟ معقول يغلط بحق جوز خالته؟

- يا ستي فريد بيغلط مع مين ما بدك. الأستاذ عبد الله بيعلّم الولاد في الصف الأول 25 سنة، فريد خلاه ينتف شعره، ويفكر بترك المدرسة، وحتى علاء الرداد اللي بيلعِّب السعادين عَ أصابيعه، انصرع من فصول فريد، ولا تنسي أشو عمل كمان مع أبو سمير ضراب الطوب..

أخيراً؛ أعجب أبو خليل بمقترح ابنه جميل، وهو اصطحاب فريد معهم إلى قطاف الزيتون، فهناك يكون تحت نظر أبويه وأخويه، فإذا حاص، أو لاص، أو شاغب، هم قادرون على لجمه.

* * * * *

-55-

في الصباح الباكر، قرع نواف ابن "أبو عناد القبلي"، صاحب كرم الزيتون، بابَ دار أبو خليل، وأعلمهم أنه أوقف التركتور مع التريلا في الفسحة التي تبعد حوالي 500 متر عن الدار. وخلال ربع ساعة، تقريباً، كانت الأسرة كلها مستيقظة، ودبت الحركة في الدار، استعداداً للذهاب إلى قطاف الزيتون.

دهش جميل من النشاط الاستثنائي الذي ظهر على فريد أثناء ذلك. كان في غاية المرح والسعادة. يا ترى، هل سبب فرحه يتعلق بخروجه من غرفة السجن الخاصة به، وإدراكه أن هذه الحرية سوف تستمر خلال فترة القطاف التي قد تستغرق عشرين يوماً؟ ربما.

ما أدهشه أكثر، أن فريد ترك أبويه، وشقيقه خليل، وشقيقاته البنات، وبقي ملتصقاً به. بدا عاقلاً، مطواعاً، نشيطاً، يسارع إلى إنجاز أي عمل يباشر به جميل، مثل نقل الأعدال الفارغة، والقلوع[19]، إلى تريلا التركتور، يحمل الأشياء الخفيفة أو الثقيلة دون مبالاة. نقل، بسرعة قياسية، كلَّ ما يلزم للأسرة أثناء الشغل، من زوادات، وخوابي ماء، ودشكات قماشية يمدونها على الأرض ويجلسون عليها أثناء تناول وجبات الطعام.. وعندما كان جميل يهمّ بإنجاز عمل ما، يسارع فريد إلى إنجازه قبله، وكأنه يقرأ أفكاره. وبما أنه قوي البنية، فقد كان يحمل السلاتة بيد واحدة، ويركض بها في الزقاق، حتى يصل إلى التريلا،

19- القلوع: قطع قماشية واسعة، مصنوعة من مادة الخيش، أو المشمع، توضع تحت أشجار الزيتون قبل المباشرة بقطافها، حتى لا تضيع حبات الزيتون الساقطة من الشجرة في التراب.

فيصعد بها، يضعها على الأرض الحديدية، ويقفز نازلاً، ويركض عائداً إلى فناء الدار، يأتي بالسلاتة الثانية، فالثالثة، ويضع الواحدة منهن في قلب الأخرى، ومن باب الدعابة، حينما انتهوا من التحميل، وصعد كل أفراد الأسرة إلى التريلا، أمسك بجميل، ورفعه إلى الأعلى بسهولة، ووضعه في التريلا، فضحك الجميع، ونط فريد إلى التريلا، وصاح بنواف الجالس وراء مقود التركتور:

- روح خاي أبو سلوم. الله مع دواليبك الورّانية.

جلس جميل في مقدمة التريلا، مُسنداً ظهرَه إلى حافتها، ولكن فريد لم يعتقه، وسع لنفسه مكاناً، وجلس بموازاته، مسنداً ظهره إلى الحافة.

التفت جميل نحو فريد، وهَمَّ بأن يسأله عن الأسباب التي دفعته لكل هذا النشاط، ولكنه لم يفعل، آثر أن يترك له الأمر، فإذا كان يريد شيئاً لابد أن يفصح عنه من تلقاء نفسه. وراح يفكر، قائلاً لنفسه إن تطورات كثيرة طرأت على شخصية فريد في الفترة الأخيرة.

لاحظَ جميل، وكلُّ أفراد الأسرة لاحظوا، منذ عدة أشهر، أن صوت فريد قد اخشوشن، وبدأ شعرٌ أشقر مائل إلى الحمرة، ينمو بكثافة في وجهه، وعلى مختلف أنحاء جسمه. وذات مرة؛ دخل جميل إلى المطبخ يريد أن يجهز لنفسه لفافة خبز بالزيت والزعتر، فوجد على الأرض كومة كبيرة من الملابس المتسخة، وبابوراً مشتعلاً، ولم تكن أمه موجودة، وبعد قليل دخلت ومعها ثياب فريد الداخلية المتسخة، ألقتها فوق الكومة. لاحظ وجود بقع صفراء كبيرة على الطرف الأمامي من كلسون فريد، حمله وأراه لأمه قائلاً وهو يضحك:

- مبروك يا أم خليل، هاي صار عندك تلات شباب في الدار.

زفرت أم خليل بحسرة وقالت:

- الله يفرحني فيك وبخليل، وهادا فريد، انشاء الله يقبرني، مالي قَهْرة بهالدنيا غيره، كل يوم بصلي الصبح وبدعي ربنا سبحانه وتعالى يشفي له عقله.

كان أفراد الأسرة كلهم يخشون هذه المرحلة من حياة فريد، متوقعين أنه سيصبح أكثر شراسة، وحباً للأذى، مع احتمال أن تدفعه الغريزة الجنسية المتوثبة للتفكير بالهرب من سجنه الصغير، ثم التحرش بأية فتاة أو امرأة متزوجة تأتي في طريقه، ومَن يدري، قد يتحرش بولد، لتصبح الأسرة، حينئذ، أمام أزمة ناجمة عن فعل يتعلق بالشرف والعِرض، ووقتها لا يمكن أن يتكرر سيناريو الصلح على صينية كنافة مع أبو سمير ضراب الطوب، أو عقد تسوية ودية حول إحدى مشاكله، كالتي توصلوا إليها، بشق النفس، مع عائلة "اخرطي".

عندما كبر خليل وجميل (المتقاربان بالسن كما لو أنهما توءمان)، وبلغا مبلغ الرجال، لم يكن هناك أي احتمال لأن يتسببا للأسرة بمشاكل لها علاقة بالنسوان، لأن والدهما سرعان ما أخرجهما من المدرسة، وصار يصحبهما معه إلى الفلاحة. وقد لجأ أبو خليل إلى سياسة التحفيز، فأفهمهما أنه عندما يقبض أي مبلغ من أجور الفلاحة، أو قطاف الزيتون، سيقسمه إلى نصفين، الأول يخصصه لمصروف الأسرة، والثاني يقسمه إلى ربعين، ربع لخليل، وربع لجميل، وقد وضع لكل منهما، في "الكتبية" الموجودة في غرفة الزوار، مطمورةً

فخارية كبيرة كُتب عليها اسمه، وقال إن هذه الوفورات مخصصة لزواجهما، فعندما يذهب الواحد منهما لأداء الخدمة العسكرية، ويعود بالسلامة، يفتح مطمورته، ويدفع مما فيها من نقود مصاريفَ الخطوبة والزواج. وكان يردد على مسمعيهما:

- يا إبني، شغلك إلك، ولمستقبلك، ولما بيحكُم وقت جازتك بتتجوز، وبتفتح بيت، بيصير سعرك بسعر كل الرجال في هالبلد.

*****

-56-

لدى وصول أسرة أبو خليل إلى كرم الزيتون، استأنف فريد نشاطه المحموم، في تنزيل الحاجيات، ووضع السَلَّاتات بالقرب من الأشجار، وبقي ملازماً لجميل مثل ظله.. وما إن دارت عجلة الشغل، وتسلق جميل درجات السلاتة من إحدى الجهات، وبدأ يعمل، حتى برز له فريد من الطرف الآخر، وباشر بـ سَلْت الأغصان وإسقاط الحبات على الأرض بمهارة استثنائية، وأثناء ذلك كان يختلس النظر إلى وجه جميل، دواليك حتى سنحت له فرصة، فقرب فمه من وجهه، وقال له:

- لو قلنالا قومي اطلعي معنا عَ حواش الزيتون، أشو كنا منخسر؟ أكيد ما منخسر شي. بس هيّ ما راح تجي حتى لو عزمناها، وصدقني معها حق، ليش؟ لأن هيّ معلمة مدرسة، شلون بدها تركَبْ بالتريلا؟ أنا شفتا أكتر من مرة معداية قدام الشباك، كمان شفتا يوم طلعنا عالمقام، هيي بتلبس تنورة ضيقة.. يعني ما بتحسن تفشخ، وإذا أنا شلتها، متلما شلتك، وحطيتها في التريلا، وأجت معنا، شلون بدها تقعد على التراب الأحمر، أو فوق القلوع؟ بيتوسخوا تيابها. صح؟ ويمكن كمان ركبها ينجرحوا. بس هي غلطانة، كان لازم تجي معنا، وإذا توسخوا تيابا وين المشكلة؟ لما ترجع عَ الدار بتغسلهن، وبتنشرهن عَ الحبل تبع الغسيل، وبتلبس غيرهن. أكيد في عندها دولاب مليان تياب وبَدَلات. مو كانت متجوزة وتطلقت؟

كادت عينا جميل تخرجان من محجريهما، وقال:

- ولاك قرد، أنت على مين عم تحكي؟

- عليها هيي. مين في غيرا؟ يخرب ديارا، يا خاي أبو مرعي، قسماً بالله عليها جسم! (وصار يشير بيديه ممثلاً شكلَ الثديين والبطن والمؤخرة)، قصدي وجّا، عليها وجّ يا خاي.. كويسة كويسة، وجًّا بيضوي ضَوي. الله يستر عليها. بس المشكلة هيي أكبر مني. ما هي أكبر مني بكتير، سبع تمن سنين بس.

صاح جميل: أنت على مين عم تحكي ولاك حيوان؟

- آ؟ عم بحكي على هاي، إإإ..

- تحكي من وجع ضرسك ان شاء الله. أنت مفكر تعمل لنا مشاكل مع أهل الحارة؟ طول بالك، إذا ما بخبر أبوك أنا ما بكون جميل سبنَّان.

هذه الجملة الأخيرة أغضبت فريد. هز رأسه بحنق، وبقفزة واحدة صار على الأرض، وذهب إلى حيث يقف خليل على سلاتة أخرى مثبتة بجوار شجرة زيتون عالية، صعد من الطرف الآخر، وانهمك بالعمل بجواره.

وأما جميل فقد توقف عن العمل، وشرد مفكراً بما سمعه من فريد. تذكر ذهابَه إلى منزل علاء الرداد، يوم أرسله أبوه لحل المشكلة مع عائلة "اخرطي"، والاهتمامَ الكبير الذي أبدته "عليا" بفريد أمامه، وصار يربط ذلك الاهتمام بما قاله فريد قبل قليل. صحيح أن فريد لم يذكر اسم عليا، ولكنه كان يرسم صورتها، قال إنها معلمة مدرسة، وترتدي تنورة ضيقة، وأكبر منه بست سبع سنوات. تساءل بحيرة:

- معقولة هاي عليا تحب ولد مجنون لسه ما صار عمره 16 سنة؟ استغفر الله العظيم.. إذا كان هالحكي صحيح يا ساتر!

* * * * *

-57-

مع بلوغ فريد مبلغ الرجال، أصبحت شخصيته أكثر حدة. وبقدر ما أصبح يُبدي من التعاون، والود، والمقدرة على الحوار الهادئ مع الذين حوله، بقدر ما كان يمتلئ بالحنق، وتزداد لديه الرغبة في الانتقام من الذين لا يصغون إليه، ولا يتعاملون مع همومه بما يكفي من الجد والتعاطف.

أزعجه جميل جداً، فهو لم يتجاوب مع الموضوع الذي أراد أن يأتمنه عليه، ولم يسأله عمن تكون المرأة التي كان يلمح إليها، وفوق هذا كله راح يهدد بأنه سيخبر أباه بالأمر، وهذا يعني، من جهة أخرى، أنه، بهذا البوح أمام جميل، قد ورط نفسه، ولا شك أن جميل سوف يعمل على عقد اجتماع عائلي طارئ، فور عودتهم إلى الدار، وكالعادة، سوف يقررون عقوبة يفرضونها عليه، وقد يتركونه في سجنه ويذهبون إلى قطاف الزيتون بدونه.. لو كان جميلاً أخاً طيباً، لقفز من فوق السلاتة فور سماعه قصة أخيه الأصغر، واستعار التركتور من "نواف"، وأسرع إلى البلدة، وقرع الباب على الأستاذ علاء، ودعاه لأن يأخذ معه "العيال" ويلتحق بأسرتنا في قطاف الزيتون، ووقتها لا توجد ضرورة لأن تعمل علياء في السَلْت، أو اللقط، أو العفارة[20]، يكفي أن تأتي، كما يقولون، شَمّة هواء، وهو، فريد، سيجهز أثفية، ويوقد فيها حطباً، ويغلي لها كأساً من الشاي، ويضيفها، وربما تلامس يدُه يدَها، أو يغرز بصره بين نهديها الأبيضين، فينبسط مثلما حصل معه يوم جاءت وتحدثت معه من خلال نافذة غرفته، وكانت تريد أن تدخل لزيارة والدته ثم غيرت

20- السلت: قطف الحبات المتلاصقة في كل غصن زيتون. اللقط: جمع الحبات من فوق القلوع. العفارة: البحث عن حبات نسيها السالتون، وجمعها.

رأيها، وقالت له: لا تحكي قدام حدا أني جيت لهون، ويوم سافر إلى المقام خرجت لتراه. آ؟ أكيد، وإلا ما هي هذه الصدفة التي جعلتها تخرج من الدار قبل أن يمشي الباص؟ يتذكر الآن ما جرى له عندما اقتربت من شباكه، فقبل أن تبتعد في الزقاق كان قضيبه قد انتصب كما لو أنه عصا، وخلال لحظات راح يقذف ذلك السائل اللزج. وكانت تلك أول مرة يشعر بها بلذة هائلة.

تسلق فريد دَرَجَات الطرف الآخر من السلاتة التي يعمل عليها أخوه خليل، وراح يشتغل بعصبية، ويفكر بما جرى بانفعال. قطع شرودَه صوتُ خليل يسأله:

- ولاك فريد، إشبك؟ كأنك عم تحكّي حالك؟

- لأ، بس كنت عم فكر شلون بده يدخل أخوك جميل يوم القيامة على نار جهنم، وينشوى متل الشَلْفُون. بدي أسألك يو خاي خليل، الحكي بأعراض الناس حرام ولا حلال؟

- مين عم يحكي بأعراض الناس؟

- أخوك جميل.

- أعوذ بالله. مستحيل. طيب احكي لي، أشو حكى؟

- أنا كنت عم بشتغل جنبه، على هديك السلاتة، وصار يحكي شَنْدي بَنْدي على أخت الأستاذ علاء، أشو إسما؟ صدقني نسيت، يمكن عالية أو علا.. طيب يا خاي، المخلوقة تجوزت، وطلع حظها مو كويس، جوزا بيضربا، وبيحشّكلا على كس أمّا. تطلقت. وين المشكلة؟ مو عيب يحكي عليها جميل ويقول فلتانة؟

كان خليل يستمع إلى هذا الكلام باندهاش عظيم. وقبل أن يتمكن من قول أي شيء، قفز فريد عن السلاتة، وصار يركض في عمق كرم الزيتون.

*****

-58-

كانت أسرة أبو خليل من أكثر الأسر التي تُطلب للعمل في قطاف الزيتون مقابل أجر جيد، لأنهم أناس شرفاء، يعملون بجد، ولا يضيعون الوقت المخصص للشغل، مثلما يفعل بعضُ العمال الزراعيين، وكان صاحب الكَرْم الذي يعملون عنده، "أبو عناد القبلي"، من الناس الطيبين، المحترمين، وكانت تلك السنة من سني الخير بالنسبة لثمر الزيتون، وخلال ذلك النهار امتلأت الأعدال بحب الزيتون، وامتلأت النفوس بالبهجة، وفجأة، وبينما الكل منهمكون في جمع الحَب من تحت الأشجار، إذ سُمع صوت الطبل، التفتوا فوجدوا الطبال أبو قدورة، والزمار أبو عليّان، قادِمَيْن على عربة يجرها كديش، وسرعان ما ترك أبو خليل وخليل وأحمد وأبو عناد وابنه عناد أعمالهم، واصطفوا وانخرطوا بالدبكة، وبعد قليل جذب أبو عناد زوجته من يدها، لتشاركه الدبكة، وأبو خليل فعل مثله، شاركتهما البنتان الكبيرتان نذيرة وسلمى على استحياء، ثم تشجعت أختاهما صبرية وخيرية وانخرطتا بالدبكة، وخلال دقائق قليلة تحول المكان إلى ما يشبه العرس، والزغاريد بلغت أذن الجوزاء.. بعد مضي ربع ساعة تقريباً، توقف الطبال والزمار عن العزف، وصاح أبو عليان الزمار:

- شيباش أبو عناد شيخ شباب البلد، شيباش عناد القبلي، وأخوه نواف، شيباش عمي أبو خليل سبنَّان، وخليل، وجميل، شيباش كل الشباب والصبايا..

أبو عناد غمز ابنه نواف بعينه، فأسرع هذا إلى كومة الزيتون، وملأ

منها زنبيلين، أفرغهما في كيس يضعه الطبال والزمار على عربتهما، وكانا ممتنين جداً لهذا الكرم المشهود..

ولكن ذلك النهار لم يمض على خير، فبعدما رجع العمال إلى عملهم، صعد أبو عناد أول درجة من السلاتة، والثانية، وعندما داس على الدرجة الثالثة، انكسرت الدرجة تحت ثقله، ووقع، وسُمع صوت ارتطامه بالأرض، وأم عناد ولولت، وركض العمال، وأجلسوه، وحاولوا إسعافه بطرق بدائية، سقوه ماء من البيدونة، وغسلوا وجهه، وشَغَّل ابنُه نواف الطريزينة، ووضعوه فيها، وأخذوه بسرعة باتجاه المستشفى الوطني.

تبين للأطباء، بعد المعاينة والتصوير الشعاعي، أن أبو عناد مصاب بكسر متبدل في عظم الفخذ، جبروه، وقرروا أن يبقى في جناح الجراحة العظمية ثلاثة أيام، وبعدها يخرجونه إلى البيت، حيث يجب أن يرتاح مدة ثلاثة أسابيع.

*****

-59-

عادت أسرة أبو خليل إلى الدار. حمد أبو خليل الله وشكره على أن حادثة سقوط أبو عناد من على السلاتة، التي وقعت أثناء قطاف الزيتون، لا يد لفريد فيها.

وقال مبتهجاً: طالما خليل وجميل حاطّين عينهم عليه، ما راح يحسن يتفلحص.

والتفت إلى أم خليل، وقال:
- هيك أحسن، متلما قال خليل، مناخدُه معنا ومنراقبه، وإذا بده يعمل هيك أو هيك، منوقفه عند حده.

كاد جميل أن يباشر بفتح الحكاية التي سمعها من فريد، المتعلقة بعليا الرداد، ولكن أبو خليل وقف، وقال:
- يا الله يا شباب، خليل وجميل، قوموا خلونا نمر ع أبو عناد في المستشفى، لازم نشق عليه.

* * * * *

-60-

بعد خروج أبو خليل وخليل وجميل من الدار، اندفعت البنت الوسطى صبرية من غرفة البنات مثل السهم، وأمسكت بيد والدتها وسحبتها عنوةً باتجاه المطبخ، وحينما أصبحتا في الداخل، أغلقت الباب، ووضعت أمامه طاولة الغسيل الثقيلة، وقالت:

- اسمعي يام، بدي قلك شغلة، لكن بشرط، قبلما أحكي لك أي شي، عاهديني أنك ما تنقلي الكلام عن لساني. لأني أنا ماني قَدّ فريد، والله إذا بيضربني ضرب بيعطبني.

دهشت أم خليل من هذا التصرف، وهذا الكلام، وقالت:

- من دون يمين ركبي تقصَّفوا. احكي لي أوام. أشو في؟

- يام، أبو عناد ما وقع من عَ السلاتة لحاله، أخوي فريد هو السبب. اسمعي لأحكي لك. بس الله يخليكي، ما تجيبي سيرتي. أنا ما ناقصني.

- وليك صبرية خلاص. والله ما بجيب سيرتك. احكي لي. أشو صار؟

- أنا كنت تحت الشجرة، عم أسرُب زيتون، سمعت فريد عم يحكي مع جميل، حكى معه حكي كتير، فهمت منه إنه هو بيحب.. هاية..

- مين هاية؟

- معلمة المدرسة، اللي بتطلع بالقَرعة، عليا الرداد، بنت القَيّمة.

- ولي! ومن وين لوين هالمنحوس بيعرف عليا؟ صار له أكتر من سنة محبوس في الأوضة.

- أنا ما بعرف من وين بيعرفا. ولما جميل سمع منه هالحكي بَهْدَلُه،

وهدده إنه راح يحكي لأبوه. قام هوي انجعز، ونزل من عالشجرة وصار يركض، وطلع عَ الشجرة اللي عم يسلت فيها خليل، ما بعرف أشو قال لخليل، وبعدها نط ونزل، وركض ما بعرف لوين.. ولما أجا الطبال، وصرنا ندبك، أنا خليت عيني عليه، شفته جاي عَ الشجرة اللي كان جميل عم يسلت عليها، وجايب معه منشار، كان مخبيه تحت تيابه، وبلش ينشر العارضة تبع السلاتة، وبعدما قصها، ربطها بخيط قنب وتركها ومشي. راح لبعيد. يام، أنا فهمت قصده، كان بده جميل يطلع عالسلاتة ويوقع، بس اللي صار إنه أبو عناد هوي طلع عليها ووقع!

*****

-61-

لم يستطع أبو خليل أن يفسر سلسلة التصرفات التي قوبل بها وولداه خليل وجميل أثناء زيارتهم لأبو عناد القبلي في المستشفى الوطني، فقد لاقاهم نواف عند مدخل قسم الجراحة العظمية، وطلب منهم ألا يكثروا من الأخذ والرد مع والده، زاعماً أن هذه نصيحة الطبيب، وأما أبو عناد، فسلم عليهم بوجه ناشف، ثم أدار وجهه نحو الجدار، وأسبل جفنيه وكأنه يعاني من فرط النعاس، وعندما غادروا الغرفة التي يضطجع فيها، مشى معهم نواف حتى آخر الكوريدور، وقبل أن يغادروا، أمسك بيد خليل، وأخذه جانباً وقال له:

- أنا الصبح بكير راح مر عليكم بالتركتور، منشان نطلع عالشغل في الكرم، ونكمل حواش الزيتونات، بس ياريت تكونوا كلياتكم موجودين، ما عدا فريد.

*****

-62-

عندما أعلم خليل والده بما سمعه من نواف، اضطربت أحوالُه، وصار يركض باتجاه الدار، ويقسم أغلظ الأيمان على أنه الليلة سيرتكب جريمة قتل بابنه المجنون فريد، وراح خليل وجميل يغذان السير وراءه، ويرجوانه أن يهدأ، ويُعْمِلَ عقلَه في معالجة هذا الموضوع، وقال خليل:

- الشغلة بدها طولة بال ياب، نحن لحد هلق ما فهمنا القصة، نواف قال لي هالكلمتين، وتركني ومشي. ولما صحت له لأفهم منه القصة ما رد علي.

وقال جميل: أنا ما بستبعد يكون فريد هو اللي سبب الأذى لأبو عناد، بس والله غريبة، ولا حدا منا شاف فريد وهو عم يئذي.

*****

-63-

اجتمعت الأسرة في غرفة الجلوس، وأثناء ذلك كان فريد جالساً على الأريكة المتطاولة بطريقة شديدة التهذيب، يجمع جسده الضخم على بعضه، ويُشبك يديه على ركبتيه، ويحني رأسه إلى الأسفل.

قال أبو خليل: ولاك جحش، أشو عملت لما كنا في حواش الزيتون؟

- أنا ياب؟ ما عملت شي طاول، أنت وأمي وإخوتي وأخواتي كنتوا موجودين، وشفتوا بعينكم شقد كنت عاقل وحباب.

- عاقل؟ إن شالله "عاقولة[21]" تلطِّكْ عَ طيزك حتى تورم، لكان ليش بيت أبو عناد ما بدهم أنت تكون معنا في حواش الزيتون؟

- بدك الصراحة ياب؟ الحق معهم. أنا طالع معكم تكويشة[22] وعالبيعة، بالأخير أبو عناد ما راح يدفع لك أجرة عني، لكن لما بيصير وقت الأكل، بقعد أنا وباكل متل العمال اللي بياخدوا أجرة، ويمكن أكتر. يعني هلق إذا ما رحت معكم، بيت أبو عناد بيوفروا أكل زلمة.

- إن شاء الله تاكل سليماني يهري معلاقك، يعني أنت ما إلك علاقة بالسلاتة اللي انكسرت ووقع أبو عناد من فوقا؟

21- العاقولة: عصا طويلة، رأسها معقوف، تستخدم في قطاف التين، يرفها الرجل، ويجذب بها الغصن البعيد ليقطف التين البعيدة.

22- التكويشة في لعبة الكونكان ورقة ترمي على أية مجموعة ورقية منتظمة، فهي غير أساسية.

- أبداً ياب، أنا كنت واقف عالسلاتة تبع خليل، ومع إنه أبو عناد ما بيدفع لك أجرة عني، صرت أشتغل وأسلت و..

قبل أن يكمل فريد كذبته؛ تدخلت أم خليل. أمسكت بفريد من يده، وأخرجته من الغرفة، ودخلت به إلى غرفة سجنه، وقالت له:

- آخ منك يا فريد. والله ما حدا راح يموتني قبل أواني غيرك أنت.
ورفعت غطاء الفراش الذي ينام عليه، وقالت:
- نام هلق. لنشوف كيف بدها تنحل هالقصة.

* * * * *

-64-

في غرفة النوم، ترك أبو خليل نور الغرفة مشتعلاً، وطلب من أم خليل أن تجلس قربه في السرير، وحينما جلست، وضع يده على رأسها وقال:

- ناشدتك بالله، وإيدي على راسك، إذا بتعرفي شي عن الحادثة تبع أبو عناد خبريني.

حكت له، والأسى في عينيها، عن الفخ الذي نصبه فريد لشقيقه جميل، لكي ينتقم منه، ولكن أبو عناد هو الذي وقع فيه دون أن يدري!

ذهل أبو خليل. قال: بده ينتقم من جميل؟ أف! ليش بقى؟ على علمي جميل بيحبه وبيدير باله عليه.

أخذت أم خليل من أبو خليل عهداً بأن يصغي إلى القصة دون غضب أو انفعال، وألا يسألها عن مصدر معلوماتها.. ثم حكت له ما سمعته من ابنتهما صبرية بخصوص ما قاله فريد لجميل عن ولعه بعليا الرداد. وسارعت تقول:

- دير بالك تتسرع يا مرعي، ترى الشغلة فيها عِرْض. ما بدنا نتورط ونورط ولادنا بمشكلة مع بيت الرداد.

رفع أبو خليل يديه الاثنتين إلى الأعلى تلقائياً، ثم أنزلهما على رأسه، وزفر، وقال:

- طيب. أنا ما بدي أغضب ولا أتسرع. بس أقسم بالله راسي انصرع، ولو وحدة غيرك عم تحكي لي هالحكي، بقول لحالي كذابة بس إنتي

بعمرك ما كذبتي علي. يا ربي دخيلك، وأنت أرحم الراحمين، أنا أشو بدي أساوي بهالبلوة؟

سكت قليلاً، ثم قال، مومئاً بإصبع يمناه، كما لو أنه اهتدى إلى الحل الأنسب:

- أحسن شي بهاي الحالة أن نرجعه على غرفته، ونقفل عليه.

- معك حق. خلص، أنا بحكي معه، وبقنعه إنه بلا ما يطلع معنا على حواش الزيتون.. وبقله إنه بيت أبو عناد ما بدن هو يطلع.

- أي أحسن. ولا تنسي تحطي له أكل وشرب، شي يكفيه في غيابنا. والنسبة لهاي، عليا الرداد، أشو بدنا نعمل فيها؟

*****

-65-

تلقى فريد نبأ إعادته إلى سجنه بفرح غامر.

كانت أم خليل ترتب له أمور معيشته، وتضع فوق الرف الخشبي الموجود في غرفة السجن كميةً من أرغفة الخبز، وصحناً مملوء بالزيت، ومستلزمات أخرى كالزعتر والجبن والمكدوس، وتملأ الخابية بالماء وتضع فوقها الطاسة، وهو ما ينفك يشيد بالقرار، متظاهراً بأن هذا أفضل، لهم ولعائلة أبو عناد. وفجأة أخذ يسخر من عائلته، وطريقة أفرادها السيئة في التعامل معه، قال:

- هلق بتروحي إنتي وجوزك وولادك ع حواش الزيتون وإنتوا آخر رَوَاق. انبسطوا على كيفكم، وإذا أجا الطبال والزمار ادبكوا هيك (صار يدبك)، وغنوا (حنّكْ نَصَفْ حنك توم)، دوه دوه.. وهادا فريد اللي بزمانكم لقيتوه في المزبلة، خلوه محبوس في غرفته.. وحتى هاي اللي (وأشار بيده جهة دار عائلة الرداد).. اللي.. أكيد عرفتيا. حتى هاي ما بيحسن يوصللا، مع إنه دارا قريبة من داره. شَلْفة حجر. وهي ما بتعرف إنه فريد هون، لو عرفت كانت بتجي. بتعرفي ليش؟ لأنه قلبا طيب، وبتحب الخير. مو متلك إنتي اللي طول النهار (يقلدها) يقبرني خليل ويقبرني جميل وتقبرني خيرية وصبرية.. وفريد أشو؟ ولا شي. لو إنتي أمّ بتعرفي الله، كنتي بتخلي ولادك كلن مبسوطين. بتعرفي شلون؟ لازم تكوني بتعرفي: بتدقي عليها الباب قبلما تروحي عالشغل، وبتقوليلا فريد هون. لكن أعوذ بالله. ما بتعمليا. إنتي بتريدي ابنك اللي لقيتيه في المزبلة ينبسط؟ مستحيل.

كانت أم خليل تسمع هذا الكلام والدموع تجري على خديها بصمت. خرجت. أقفلت الباب، وتركت المفتاح فيه كالعادة، وتابعت طريقها للالتحاق بأفراد أسرتها الذين كانوا ينتظرونها في تريلا التركتور الذي سيأخذهم إلى كرم الزيتون.

*****

-66-

أمضى فريد النصف الأول من النهار وعقلُه دائم التفكير في أشياء كثيرة، يأتي في مقدمتها كيفية الخروج من (الغرفة/السجن) و.. وماذا؟ عقله لم يفكر، بل قلبه الذي كان يفكر، ويخطفه دائماً باتجاه دار عَليا.

قبل أن يبلغ مبلغ الرجال؛ لم يكن يرى في النساء سوى بشر عاديين، مثل الرجال والأولاد. وحتى بعد البلوغ، كان يشعر تجاه النساء اللواتي يعبرن أمام شباك سجنه، بشيء غريب يشبه الغليان في جسمه، ولكنه لم يكن يستثار، لأن العابرات كن يبدين منه حذراً وخوفاً، ويسرعن لدى اجتياز المنطقة القصيرة من الزقاق المقابلة للشباك.. إلى أن حصل ما حصل في ذلك اليوم عندما جاءت عليا، ورأى في نظراتها أنها تتعاطف معه، بل وتحبه، وتحرص عليه، وصار يسترجع تلك النظرات النهمة إليه، والكلام الهامس الذي تحركت به شفتاها، وارتجاج جسدها أثناء المشي، ولا يذهب من مخيلته كيف انتصب قضيبه إلى درجة أنه أوشك على تمزيق ثيابه الداخلية، وترتفع درجة حرارته وقت تذكر اللحظة التي مد فيها يدَه إليه، وسرعان ما بدأ القذف، وكان المنظر الثاني يثيره أكثر، حينما كمن لها في الزاوية، قبل ذهابه إلى مقام الشيخ عبد الحنان، رأته يركض ويدخل في القرنة، فتعمدت أن تلحق به، وتقف مقابله، وتطلب منه أن ينتبه لنفسه، بينما شفتاها متكورتان وكأنها تقبله.. صار يشعر بالندم لأنه لم يجذبها إليه، ويحضنها، ويجعل قضيبه يحتك بوسطها، ومع تكرار عبور ذينك المشهدين في مخيلته، وخوفاً من افتضاح أمره من قبل والدته عندما تغسل ثيابه الداخلية، صار يتقصد إخراج قضيبه خارج الثياب لكي

يقذف المني إلى الخارج، وبعد ذلك يحمل الخرقة العتيقة التي وضعتها والدته في زاوية الغرفة لمسح الأرض، كلما قذف عليها، ثم يزيل الأثر بإلقاء الخرقة إلى الزقاق من خلال ثقوب العوارض الحديدية العليا.

وبينما هو مستغرق في هذه الهواجس، إذ لمح صديقه أبو برداغة قادماً من آخر الزقاق. سر لقدومه، بادره قائلاً:

- أهلين أبو برداغة. بشرني عنك وعن كلابك؟ ان شالله عم يعووا منيح؟

- إذا ما شافوك يا فريد الكر ليش بدن يعووا؟ أشو المناسبة؟

- هن ما بيعووا هيك من الباب للطاقة، يمكن بيعووا لك حتى يسلوك. اسمع لقلك. مد إيديك المكسورات وتعربش ع الشباك، بدي أحكي معك جوز كلام، وما بدي حدا يسمعنا.

علق أبو برداغة أصابع يديه بإفريز الشباك، وأنهض جسمه إلى الأعلى، حتى أصبح وجهه مقابل وجه فريد، وقال له:

- نعم يا أبو خف الرياضة المحَيَّر. أشو لازمك؟

- بزمانك حكيت لي شلون تعربشت على حيط الجامع، وطَفّيت لتحت، وسرقت سجادة وبعتا، وخسرت حقا بالقمار، وما حدا حس عليك.

- أي؟ أشو يعني؟ مفكر تبلغ عني؟

- لك تضرب، هلق أنا فاضي لك حتى بلغ عنك؟ بدي منك خدمة زغيرة، بقد راس الدبوس.

- أشو هي؟

- روح لقدام شي عشر متار، بتلاقي الحيط مكسَّر، هاي المنطقة أنا كنت أطلع عليها كل يوم لما أرجع من السهرة، وأنزل عالدار بشويش،

حتى ما حدا يحس علي، روح انت هلق تعربش وطف على دارنا، وادخول عالأوضة تبعي، وافتح لي الباب.

- بدك ياني أنزل ع داركن؟ طيب ليش؟

- آ؟ ولا شي، مفكر ضيفك كاسة جاي، وشوفة عينك، هون في الغرفة ما عندي بابور، ولا عندي كاسات. لك ياالله أبو برداغة، انزيل خلصني.

(نفذ أبو برداغة ما طلبه منه فريد، وحينما أصبح في الداخل، أخبره كيف يدخل إلى غرفته، ويفتح له الباب).

*****

-67-

لم يكن حصول فريد على فرصة لمقابلة عليا سهلاً، بل تطلب منه الأمر أن يروح ويغدو أمام باب الدار، وإذا رأى رجلاً، أو أولاداً، قادمين من عمق أحد الأزقة التي تتفرع عن بيت علاء، يسارع للاختفاء في الزقاق الآخر، وإذا التقى بأحد معارفه كان يرفع يده إلى أمام جسمه ويدورها كما لو أنه يحمل وعاء فيه زيت، ويقول له: أوعى أوعى، ويتجاوزه، وبعد أن يصبح بعيداً عنه، يلتفت، ويتأكد من خلو الزقاق ويعود، وبقي كذلك حتى رأى علاء وزوجته وولده الصغير يخرجون من الدار، وبعد أن ابتعدوا صار يمشي إلى الوراء، حتى وصل باب الدار، فقرعه وابتعد، فلما فتح الباب وظهرت أم علاء، وهي تصيح (مين؟) بقي مختبئاً حتى ملت، ودخلت، وأغلقت الباب، إلى أن.. وفق أخيراً بعليا، التي كانت قادمة من طرف ساحة الخضار، فركض باتجاهها، وحمل الحقيبة التي كانت في يدها، ومشى بجانبها، وهو يقول:

- ما بدي شي، بس منشان وصل لك الغراض.

ابتسمت عليا تلك الابتسامة التي أخذت بلب فريد، وجندلته، وقالت:

- يسلموا إيديك فريد. أشو بدي أقلك؟ إذا كنت فاضي فوت حتى أضيفك كاسة شاي.

*****

-68-

خاتمة (غير مناسبة طبعاً)..

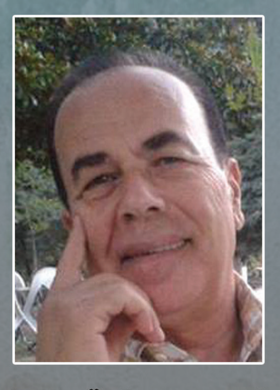
للأمانة التاريخية، وللإنصاف، فإن قصة الفتى فريد مرعي سبنَّان التي رَويت لكم بعض فصولها لا تنتهي هنا، ولكنني آثرت أن أوقف سردها لسبب بسيط، وهي أن حالة الجنون التي افترضنا أنها موجودة عند هذا الولد انتهت، وأصبح الحديث عنه، بوصفه شاباً عاقلاً غير ممكن، ويفتقر إلى الجِدّة (الطرافة)، وإذا أنا استرسلت في سرد ما وصلني من بعض الرواة الذين قالوا إنه قد أصبح إنساناً عاقلاً بفضل (الحب)، أكون قد استسلمت للشعار السينمائي التقليدي البائس، الذي يقول إن الحب يصنع المعجزات! ففي الحقيقة لم يكن هناك حب، بالمعنى المتعارف عليه، ولا معجزات، كل ما في الأمر، أن عليا، وهي في عز أزمتها مع زوجها الذي كان يتحاقر عليها، ويهين كرامتها، ومعظم أهالي البلدة، أو إذا شئت المدينة، يتعاطفون معه، دون أن يفهموا ملابسات قصتهما... وجدت شيئاً ما يجمعها بهذا الفتى الذي تواطأ القسم الأكبر من أهل البلدة ضده، عندما دمغوه بلقب "مجنون"، وصاروا يتعاملون معه على هذه الأساس، ونساء البلدة (أو المدينة) كن يتعاملن معه كما لو أنه حيوان كاسر، فيمررن من أمام شباكه بسرعة، ويتنفسن الصعداء بعدما يبتعدن عن شباكه.

لست أعول كثيراً على ذمة الأشخاص الذين رووا هذه القصة، لأنني، وبصراحة، لم أثق قط بمواقفهم، واعتقدت أنهم كانوا يمعنون في تأليف القصص التي تثير الضحك على فريد، حتى إنهم حكوا لي كيف

أنه، يوم وفاة والده، جلس في العلية، وأنزل كتاباً أصفر فيه أغاني لفريد الأطرش، وفتحه، وصار يقرأ فيه كما لو أنه (جزء عَمَّ)، وبينما الناس مستغرقون في الحزن صار يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ولا الضالين آمين، كس أمك يا أبو برداغة، كس أمك بزبي..

ولم يأت أحد منهم على ذكر مواقف لفريد يمكن اعتبارها إيجابية، ومع ذلك دعوني أقل لكم إن بعضهم تحدث عن ارتباط فريد مع عليا بعلاقة غير مشروعة، وكان أحدهم يتحدث عن عليا بنوع من التشفي، فيقول إنها كانت تُدخل فريد إلى شقتها في الليل، و(يظل ينيكها للصبح)، وآخرون آثروا أن يرتبوا الأمور بما يتناسب مع مبدأ الحلال والحرام، فقالوا إنها لم تسلمه نفسها، فزعل هو، وطفش من البلدة، وعاد بعد أن تجاوز سن الـ18، وكان والده قد توفي في هذه الآونة، (وهذا دليل على تضارب رواياتهم) واستطاع أن يقنع شقيقيه ووالدته بأن يخطبوها له على سنة الله ورسوله، وأنهما عاشا عيشة رائعة، وخلفا أولاداً صالحين.

المبيضة النهائية
30 حزيران يونيه 2023
مدينة إلمسهورن / ألمانيا



واكبت دار نون 4 إنتاج الأديب خطيب بدلة منذ سنة 2006، وكانت الدار قد افتتحت باكورة أعمالها بإصدار أربعة كتب لأربعة كتاب ثلاثة منها، لكتاب حلبيين مرموقين، إضافة إلى خطيب بدلة من مدينة إدلب.

وأصدرت الدار، بعد ذلك، معظم إبداعات خطيب، حتى بعدما انتقل مركزها إلى مدينة غازي عينتاب التركية، حيث أصدرت له:

"حكايات سورية لها علاقة بالاستبداد"، ومجموعة قصصية بعنوان: "السوريون منبطحاً"، ورواية "أبو دياب يتكلم في الأفراح"، وها نحن أولاء نسعد بنشر قصته الفريدة "فريد الفتى الفريد". التي تنتمي إلى الأدب الساخر الذي يغرف الكاتب قصصه وحكاياه من ثراء قاع الحياة الشعبية.

في هذه الرواية يستند الكاتب إلى عوالم الطفولة، كاشفاً عن تربية الأهل والمدرسة في زمن، بعيد نسبياً، ويتخذ من خلال التصرفات العفوية للصغار مفارقاتهم المثيرة للضحك البريء، والسخرية المرة، إذ يحاول بطل الرواية فريد أن يصحح أخطاء غيره بأخطاء تصل حدود الكوارث أو الفواجع.. وبذلك يزيح الكاتب الستارة، بشفافية عالية، عن بؤس واقع حياة الكبار وشقائها.. فهؤلاء أناس طيبون وخيّرون لكن الحياة ظلمتهم، ربما من خلال تسلط أولياء عليهم غير جديرين بالقيادة، ولا يتمتعون بالحكمة، عبر أزمان طويلة.. لاتزال تثقل عليهم، وهم، في الحقيقة، يستحقون حياة أرقى وأهنأ وأمتع..


ISBN 978-9933-577-64-3

